خلاصة تفسير سورة المائدة

د حسن الحسيني

تفريغ: أحمد سالم بن حميد

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول.

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَبَعْدَ. بَعْدَ رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْمَعَانَاةِ فِي مَكَّةَ، كَانَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يَخْطُو خُطُوَاتِهِ الْأُولَى فِي تَأْسِيسِ مُجْتَمَعٍ جَدِيدٍ فِي رِحَابِ الْمَدِينَةِ. كَانَ الصَّحَابَةُ حَوْلَهُ يَتَنَفَّسُونَ نَسِيمَ الْحُرِّيَّةِ بَعِيدًا عَنْ قُيُودِ قُرَيْشٍ وَطُغْيَانِهَا، يَتَلَقَّوْنَ عَنْ نَبِيِّهِمُ الْوَحْيَ وَالْآيَاتِ الَّتِي تُنَظِّمُ حَيَاتَهُمْ وَتَرْبِطُهُمْ بِرَبِّهِمْ. وَفِي ظِلِّ هَذِهِ الظُّرُوفِ نَزَلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ، إِحْدَى السُّوَرِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي وَصُفَتْ بِأَنَّهَا مِنَ السَّبْعِ الطِّوَالِ الَّتِي أُوتِيَهَا النَّبِيُّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مَكَانَ التَّوْرَاةِ. نَزَلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ فِي أَوَاخِرِ الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ لِتَحْمِلَ بَيْنَ آيَاتِهَا تَمَامَ التَّشْرِيعِ وَاكْتِمَالَ الدِّينِ، فَهِيَ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَفِيهَا الْآيَةُ الَّتِي كَانَتْ إِعْلَانًا عَظِيمًا بِاكْتِمَالِ الْإِسْلَامِ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} (سورة المائدة: ٣).

تُسَمَّى سُورَةُ الْمَائِدَةِ أَيْضًا بِسُورَةِ الْعُقُودِ، وَكَأَنَّهَا وَثِيقَةُ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي خُتِمَتْ بِهِ رِسَالَةُ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، إِيذَانًا بِأَنَّ الدِّينَ قَدْ بَلَغَ غَايَتَهُ، وَأَنَّ عَلَى الْأُمَّةِ أَنْ تَكُونَ عَلَى قَدْرِ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَحْفَظَ عُهُودَهَا مَعَ اللَّهِ أَوَّلًا، وَمَعَ النَّاسِ ثَانِيًا. عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ أَنَّ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَالَتْ لَهُ: "يَا جُبَيْرُ، تَقْرَأُ سُورَةَ الْمَائِدَةِ؟" فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: "أَمَّا إِنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ".

فَإِذَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ فِي مَرْحَلَةٍ خِتَامِيَّةٍ لِإِكْمَالِ بِنَاءِ الْمَنْظُومَةِ التَّشْرِيعِيَّةِ الَّتِي أَرْسَتْهَا السُّوَرُ الْكُبْرَى مِنْ قَبْلُ: سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءِ، فَكَانَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ شَامِلَةً وَجَامِعَةً لِأَحْكَامِ الدِّينِ، تُنَظِّمُ أُمُورَ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ، وَتُوَضِّحُ لِلْمُؤْمِنِينَ أُسُسَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُبَيِّنُ لَهُمُ الْحُقُوقَ وَالْوَاجِبَاتِ فِي كُلِّ نَوَاحِي الْحَيَاةِ، وَتَجْمَعُ بَيْنَ دَفَّتَيْهَا مِنَ الْأَحْكَامِ وَالتَّشْرِيعَاتِ مَا لَمْ يُذْكَرْ فِي غَيْرِهَا.

وَإِذْ نَعِيشُ مَعَ سُورَةِ الْمَائِدَةِ فِي هَذِهِ الْحَلَقَاتِ، نَرَاهَا سُورَةً تُجَسِّدُ مَعْنَى الْبِنَاءِ: بِنَاءِ أُمَّةٍ تَحْيَا فِي ظِلِّ الشَّرِيعَةِ، بِنَاءِ أُمَّةٍ تَعْرِفُ حُقُوقَهَا وَوَاجِبَاتِهَا اتِّجَاهَ نَفْسِهَا وَاتِّجَاهَ غَيْرِهَا، لِتَكُونَ بِحَقٍّ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

وَمِنْ أَبْرَزِ الْمَوَاضِيعِ الَّتِي تَنَاوَلَتْهَا سُورَةُ الْمَائِدَةِ تَرْسِيخُ الْعَقِيدَةِ، فَقَدْ أَوْلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ أَهَمِّيَّةً كَبِيرَةً لِتَقْرِيرِ الْعَقِيدَةِ وَبِنَاءِ التَّصَوُّرِ الِاعْتِقَادِيِّ الصَّحِيحِ، وَنَفْيِ كُلِّ شِرْكٍ أَوْ تَثْلِيثٍ أَوْ خَلْطٍ بَيْنَ ذَاتِ اللَّهِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ. كَمَا كَشَفَتِ السُّورَةُ فَسَادَ عَقِيدَةِ

أَهْلِ الْكِتَابِ وَنَقْضَهُمْ لِمَوَاثِيقِ اللَّهِ الْمُؤَكَّدَةِ، وَتَحْرِيفَهُمْ لِلْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ، وَتَزْوِيرَهُمْ لِلْحَقِيقَةِ، وَنَاقَشَتِ السُّورَةُ بَعْضَ عَقَائِدِهِمُ الزَّائِفَةِ: مِنْ نِسْبَةِ الْوَلَدِ إِلَى اللَّهِ، وَزَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، وَإِنْكَارِهِمْ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامِ-.

وَفِي إِطَارِ تَنْظِيمِ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ، جَاءَتِ الْآيَاتُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ لِتَفْضَحَ حَقِيقَةَ أَعْدَاءِ الدِّينِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ، الَّذِينَ قَدْ يَتَظَاهَرُونَ بِالْمَوَدَّةِ، لَكِنَّ قُلُوبَهُمْ مَلِيئَةٌ بِالْحِقْدِ وَالْكُرْهِ لِلْمُسْلِمِينَ. وَمَعَ ذَلِكَ دَعَتِ السُّورَةُ إِلَى مُعَامَلَتِهِمْ وَفْقَ مَبْدَأِ الْعَدْلِ، بَلْ صَرَّحَتْ بِأَنَّ الْعَدْلَ مَعَ الْأَعْدَاءِ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى. لَكِنَّهَا هَدَّدَتْ وَحَذَّرَتْ مِنَ الْوَلَاءِ لِهَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّ السَّمَاحَةَ وَحُسْنَ الْمُعَامَلَةِ مَسْأَلَةُ خُلُقٍ وَسُلُوكٍ، أَمَّا الْوَلَاءُ فَمَسْأَلَةُ عَقِيدَةٍ وَتَنْظِيمٍ. فَالسَّمَاحَةُ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ شَيْءٌ، وَاتِّخَاذُهُمْ أَوْلِيَاءَ شَيْءٌ آخَرُ، وَلَكِنَّهُمَا يَخْتَلِطَانِ عَلَى بَعْضِ الْمُغَفَّلِينَ الَّذِينَ لَمْ تَتَضَحْ لَدَيْهِمُ الرُّؤْيَةُ الْكَامِلَةُ لِحَقِيقَةِ هَذَا الدِّينِ. فَالْمُسْلِمُ لَا يَرْكَنُ إِلَى مَنْ يُعَادِيهِ فِي دِينِهِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ صَرِيحًا فِي مَوَالَاتِهِ لِأَهْلِ الْحَقِّ، وَمُعَادَاتِهِ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ.

كَمَا أَنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةَ أَكَّدَتْ بِأَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ السُّلْطَةَ الْمُطْلَقَةَ وَالطَّاعَةَ الْمُطْلَقَةَ فِي تَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ وَتَنْظِيمِ الْحَيَاةِ، فَهَذَا حَقٌّ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَلَا يَجُوزُ لِلْبَشَرِ أَنْ يُشَرِّعُوا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ. فَذَمَّتِ السُّورَةُ أَهْلَ الْكِتَابِ عَلَى تَحْرِيفِهِمْ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ وَتَلَاعُبِهِمْ بِأَحْكَامِ اللَّهِ، كَمَا قَبَّحَتِ الْأَحْكَامَ الْجَاهِلِيَّةَ الَّتِي شَرَّعَهَا مُشْرِكُو مَكَّةَ.

كَمَا أَشَادَتِ السُّورَةُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هِدَايَةِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْإِرْشَادَاتِ وَالتَّوْجِيهَاتِ الَّتِي تُنَظِّمُ حَيَاةَ النَّاسِ، فَتَنَاوَلَتْ أَحْكَامَ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ، كَأَحْكَامِ الطَّهَارَةِ وَالْعُقُودِ وَالْأَيْمَانِ وَالْأَنْكِحَةِ وَالذَّبَائِحِ وَالْمَطْرُوحَاتِ وَالصَّيْدِ وَالْإِحْرَامِ وَالرِّدَّةِ وَالْوَصَايَا. كَمَا جَاءَتِ السُّورَةُ بِتَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي تَحْمِي الْفَرْدَ وَالْمُجْتَمَعَ مِنَ الْجَرِيمَةِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَشْرِيعِ الْعُقُوبَاتِ الرَّادِعَةِ، فَكَانَتْ عُقُوبَةُ الْبَغْيِ وَالْحِرَابَةِ وَحَدُّ السَّرِقَةِ حِفْظًا لِلْمَمْلُوكَاتِ وَرَدْعًا لِلْمُعْتَدِينَ. إِضَافَةً إِلَى أَنَّ السُّورَةَ شَدَّدَتْ عَلَى الْمُحَرَّمَاتِ حِمَايَةً لِلنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالْمَالِ، فَجَرَّمَتِ الْقَتْلَ وَالِاعْتِدَاءَ، وَجَعَلَتِ الْقِصَاصَ وَسِيلَةً لِلرَّدْعِ، وَنَصَّتْ عَلَى تَحْرِيمِ الْخَمْرِ الَّذِي يَذْهَبُ بِالْعَقْلِ، وَتَحْرِيمِ الْمَيْسِرِ الَّذِي يُضِيعُ الْمَالَ فِي اللَّعِبِ وَالرِّهَانِ. فَالْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ مُجْتَمَعٌ مَسْئُولٌ، يَقُومُ عَلَى الْعَمَلِ الشَّرِيفِ وَالْكَسْبِ الْحَلَالِ.

وَفِي طَيَّاتِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ نَجِدُ قَصَصًا عَظِيمَةً مُرْتَبِطَةً بِمَوْضُوعِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ الَّتِي سُمِّيَتْ بِسُورَةِ الْعُقُودِ. وَعَلَاقَةُ قَصَصِ السُّورَةِ بِمَوْضُوعِهَا إِنَّمَا تَتَمَثَّلُ فِي الدُّرُوسِ

الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ هَذِهِ الْقَصَصِ حَوْلَ الِالْتِزَامِ بِالْمِيثَاقِ وَالْعُقُودِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْعِصْيَانِ وَنَقْضِ الْعُهُودِ. فَقِصَّةُ مُوسَى مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَوْلَ دُخُولِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَبْرَزَتْ ضَرُورَةَ الِالْتِزَامِ بِأَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّحْذِيرَ مِنَ التَّخَاذُلِ عَنِ الْوَفَاءِ. وَمُرُورًا بِقِصَّةِ ابْنَيْ آدَمَ: هَابِيلَ وَقَابِيلَ، الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْ عَاقِبَةِ الْخُرُوجِ عَنِ الْمَوَاثِيقِ الْإِلَهِيَّةِ حِينَ طَغَتْ شَهْوَةُ الْحَسَدِ عَلَى رُوحِ الْأُخُوَّةِ. وَصُولًا إِلَى قِصَّةِ الْحَوَارِيِّينَ مَعَ الْمَائِدَةِ الَّتِي جَسَّدَتْ قِيمَةَ الثَّبَاتِ عَلَى الْعَهْدِ بَعْدَ حُصُولِ الْخَيْرِ وَرُؤْيَةِ النِّعَمِ. فَكُلُّ هَذِهِ الْقَصَصِ تَرْتَبِطُ بِالْمَحُورِ الْأَسَاسِيِّ لِلسُّورَةِ، وَهُوَ الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالِالْتِزَامُ بِالْمَوَاثِيقِ الْإِلَهِيَّةِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الطَّاعَةِ مِنْ خَيْرٍ وَبَرَكَاتٍ، وَمَا يَنْتُجُ عَلَى الْمُخَالَفَةِ مِنْ شَرٍّ وَنَكَبَاتٍ.

فِي هَذِهِ الْحَلَقَاتِ سَنَعِيشُ مَعَ آيَاتِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ، لِنَرَى كَيْفَ أَنَّ آيَاتِهَا رَبَطَتْ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، بَيْنَ التَّشْرِيعِ وَالْعَقِيدَةِ، لِتَكُونَ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ نَمُوذَجًا لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَأُمَّةً تَحْفَظُ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}. أَسْتَجِيرُ وَأَعْتَصِمُ بِاللَّهِ رَبِّي مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَنْ يَضُرَّنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ، وَبِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَبْدَأُ فِي قِرَاءَةِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ مُسْتَعِينًا بِهِ وَمُتَبَرِّكًا بِذِكْرِ اسْمِهِ الْمُتَّصِفِ بِالرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ، وَبِالرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَدْ بَدَأَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةُ بِآيَةٍ فِي غَايَةِ الْبَلَاغَةِ لِكُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ بِالْكَلَامِ. هَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا تَلُوحُ فَصَاحَتُهُ وَكَثْرَةُ مَعَانِيهَا عَلَى قِلَّةِ أَلْفَاظِهَا. آيَةٌ وَاحِدَةٌ تَضَمَّنَتْ خَمْسَةَ أَحْكَامٍ: الْأَوَّلُ: الْأَمْرُ بِالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ. الثَّانِي: تَحْلِيلُ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ. الثَّالِثُ: اسْتِثْنَاءُ مَا يُتْلَى بَعْدَ ذَلِكَ. الرَّابِعُ: اسْتِثْنَاءُ حَالِ الْإِحْرَامِ فِيمَا يُصَادُ. الْخَامِسُ: مَا تَقْتَضِيهِ الْآيَةُ مِنْ إِبَاحَةِ الصَّيْدِ لِمَنْ لَيْسَ بِمُحْرِمٍ. ذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّ الْفَيْلَسُوفَ أَبَا يُوسُفَ الْكِنْدِيَّ قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ مَرَّةً: "أَيُّهَا الْحَكِيمُ، اعْمَلْ لَنَا مِثْلَ هَذَا الْقُرْآنِ"، فَقَالَ: "نَعَمْ، سَأَعْمَلُ مِثْلَ بَعْضِهِ". فَاحْتَجَبَ أَيَّامًا كَثِيرَةً، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: "وَاللَّهِ لَا أَقْدِرُ، وَلَا يُطِيقُ هَذَا أَحَدٌ. إِنِّي فَتَحْتُ الْمُصْحَفَ فَخَرَجَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا بِاللَّهِ قَدْ أَمَرَ بِالْوَفَاءِ وَنَهَى عَنِ النَّكْثِ، وَحَلَّلَ تَحْلِيلًا عَامًّا، ثُمَّ اسْتَثْنَى اسْتِثْنَاءً بَعْدَ اسْتِثْنَاءٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، كُلُّ ذَلِكَ فِي سَطْرَيْنِ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ هَذَا الْإِعْجَازِ إِلَّا فِي أَجْلَادٍ".

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)

بَدَأَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ بِنِدَاءٍ مُبَاشِرٍ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، يُوقِظُ فِيهِمْ رُوحَ الْمَسْئُولِيَّةِ وَالِالْتِزَامِ: يَا أَهْلَ الْإِيمَانِ، قُومُوا بِأَدَاءِ وَإِتْمَامِ جَمِيعِ الْعُهُودِ الْمُؤَكَّدَةِ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ: مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ وَفَرَائِضَ، وَجَمِيعِ الْعُهُودِ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ: مِنْ عُقُودِ الْبَيْعِ وَالزَّوَاجِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مَا لَمْ تُخَالِفْ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى. وَمِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى الْعَظِيمَةِ عَلَيْكُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَلَّ لِأَجْلِكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ: مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، فَضْلًا مِنْهُ وَكَرَمًا، فَانْتَفِعُوا بِلُحُومِهَا وَأَلْبَانِهَا وَجُلُودِهَا وَأَصْوَافِهَا. {إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} تَحْرِيمُهُ بَعْدَ ذَلِكَ رَحْمَةً بِكُمْ فَاجْتَنِبُوهَا. كَمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الصَّيْدَ الْبَرِّيَّ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ، تَوْقِيرًا لِتِلْكَ الْبِقَاعِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ أَمَاكِنَ أَمَانٍ وَعِبَادَةٍ وَاطْمِئْنَانٍ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْضِي فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ، فَيُحِلُّ وَيُحَرِّمُ وَفْقَ حِكْمَتِهِ، دُونَ أَنْ يُنَازِعَهُ مُنَازِعٌ أَوْ يُعَارِضَهُ مُعَارِضٌ.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)

يَأْتِي نِدَاءٌ آخَرُ لِيُكْمِلَ الْمَعْنَى الْعَظِيمَ: يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، لَا تَتَجَاوَزُوا حُدُودَ اللَّهِ وَتَسْتَحِلُّوا مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ النَّهْيُ عَنْ مُحَرَّمَاتِ الْإِحْرَامِ وَمُحَرَّمَاتِ الْحَرَمِ. وَذَكَرَتِ الْآيَةُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ تَنْدَرِجُ تَحْتَ مُحَرَّمَاتِ الْحَرَمِ، وَجَمِيعُهَا مُقَدَّسَاتٌ يَجِبُ احْتِرَامُهَا، فَلَا يَجُوزُ انْتِهَاكُ حُرْمَتِهَا سَوَاءً بِدَافِعِ الِانْتِقَامِ أَوْ بِدَافِعِ الْمَتْعَةِ أَوْ بِدَافِعِ الطَّمَعِ وَحُبِّ التَّمَلُّكِ. فَيَا أَهْلَ الْإِيمَانِ: لَا تَنْتَهِكُوا حُرْمَةَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ الْأَرْبَعَةِ بِابْتِدَاءِ الْقِتَالِ فِيهَا أَوِ التَّلَبُّسِ فِيهَا بِظُلْمٍ أَوِ ارْتِكَابِ مُحَرَّمَاتٍ. وَلَا تَنْتَهِكُوا مَا يُهْدَى إِلَى الْحَرَمِ مِنْ إِبِلٍ أَوْ بَقَرٍ أَوْ غَنَمٍ، وَمِنْهَا هَدْيٌ خَاصٌّ، وَهُوَ الَّذِي تُجْعَلُ لَهُ الْقَلَائِدُ فِي عُنُقِهِ، وَهِيَ ضَفَائِرُ مِنْ صُوفٍ أَوْ وَبَرٍ، عَلَامَةً عَلَى أَنَّ الْبَهِيمَةَ هَدْيٌ وَأَنَّ الرَّجُلَ يُرِيدُ الْحَجَّ، فَهَذَا الْهَدْيُ لَا تُؤْذُوهُ وَلَا تَصُدُّوهُ وَلَا تَذْبَحُوهُ قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى مَحَلِّهِ، وَلَا تَأْخُذُوهُ بِسَرِقَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، بَلْ عَظِّمُوهُ وَعَظِّمُوا مَنْ جَاءَ بِهِ. وَلَا تَسْتَحِلُّوا قِتَالَ الْقَاصِدِينَ وَالْوَافِدِينَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ طَالِبُونَ فَضْلَ اللَّهِ

بِالتِّجَارَةِ أَوْ رَاغِبُونَ فِي رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، فَلَا تَتَعَرَّضُوا لَهُمْ بِإِيذَاءٍ أَوْ إِهَانَةٍ، بَلْ عَظِّمُوا الزَّائِرِينَ لِبَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ.

ثُمَّ أَتْبَعَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ بِبَيَانِ جَانِبٍ مِنْ مَظَاهِرِ فَضْلِهِ، حَيْثُ أَبَاحَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الصَّيْدَ بَعْدَ الِانْتِهَاءِ مِنْ إِحْرَامِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ مِنَ الْحَرَمِ. ثُمَّ نَهَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَحْمِلَهُمْ شِدَّةُ بُغْضِهِمْ لِأَقْوَامٍ مَنَعُوهُمْ سَابِقًا مِنَ الْوُصُولِ لِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، كَمَا حَدَثَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ، عَلَى أَنْ يَظْلِمُوهُمْ وَيَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ طَلَبًا لِلانْتِقَامِ؛ فَإِنَّ الشِّرْكَ إِذَا كَانَ يُبَرِّرُ الْإِثْمَ وَالْعُدْوَانَ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُبَرِّرُ ذَلِكَ وَلَا يَقْبَلُهُ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَقْبَلُهُ الْإِسْلَامُ هُوَ احْتِرَامُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفَتْحُ الطَّرِيقِ إِلَيْهِ أَمَامَ النَّاسِ. يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: تَعَاوَنُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ عَلَى الْخَيْرِ وَالْبِرِّ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ، وَلَا تَتَعَاوَنُوا عَلَى الْمَعَاصِي وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ. وَجَاءَ خِتَامُ الْآيَةِ بِالْأَمْرِ بِالتَّقْوَى بِالِامْتِثَالِ لِأَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَالْحَذَرِ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ خَلْقِهِ، فَاللَّهُ تَعَالَى شَدِيدُ الْعِقَابِ بِكُلِّ مَنْ عَصَاهُ وَانْحَرَفَ عَنْ هَدَاهُ. نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَى الْوَفَاءِ بِعُهُودِهِ وَمَوَاثِيقِهِ، آمِينَ.

الدرس الثاني

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)

كُلُّ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَهُوَ فِي مَصْلَحَةِ الْعِبَادِ، فَلَمْ يُبِحِ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا النَّافِعَ الْمَفِيدَ، وَلَمْ يُحَرِّمْ إِلَّا الضَّارَّ الْخَبِيثَ. فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَطْعُومَاتِ التَّالِيَةَ: أَوَّلُهَا: الْمَيْتَةُ، وَهِيَ كُلُّ حَيَوَانٍ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ مِنْ غَيْرِ ذَبْحٍ وَلَا اصْطِيَادٍ، عَدَا السَّمَكَ وَالْجَرَادَ. وَثَانِي الْمُحَرَّمَاتِ: أَكْلُ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ الَّذِي يَسِيلُ مِنَ الْحَيَوَانِ عِنْدَ ذَبْحِهِ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَشْوُونَهُ وَيَأْكُلُونَهُ، أَمَّا الدَّمُ الْجَامِدُ بِأَصْلِ خِلْقَتِهِ كَالْكَبِدِ وَالطِّحَالِ فَإِنَّهُ حَلَالٌ. وَثَالِثُ الْمُحَرَّمَاتِ: الْخِنْزِيرُ، لَحْمُهُ وَشَحْمُهُ وَجِلْدُهُ

وَجَمِيعُ أَجْزَائِهِ. وَرَابِعُ الْمُحَرَّمَاتِ: مَا ذُبِحَ وَذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمُ غَيْرِ اللَّهِ. وَالْخَامِسُ وَالسَّادِسُ وَالسَّابِعُ وَالثَّامِنُ وَالتَّاسِعُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ يُعْتَبَرُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَيْتَةِ، وَهِيَ: الْمُنْخَنِقَةُ (الَّتِي مَاتَتْ خَنْقًا بِحَبْلٍ وَنَحْوِهِ)، وَالْمَوْقُوذَةُ (الَّتِي مَاتَتْ ضَرْبًا بِعَصًا وَنَحْوِهِ)، وَالْمُتَرَدِّيَةُ (الَّتِي مَاتَتْ لِسُقُوطِهَا مِنْ مَكَانٍ عَالٍ كَجَبَلٍ وَنَحْوِهِ)، وَالنَّطِيحَةُ (الَّتِي مَاتَتْ بَعْدَ أَنْ نَطَحَتْهَا بَهِيمَةٌ أُخْرَى)، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ (الَّتِي مَاتَتْ بَعْدَ أَنِ افْتَرَسَهَا حَيَوَانٌ مُفْتَرِسٌ كَالذِّئْبِ وَالنَّمِرِ). إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ أَبَاحَ إِنْ أَدْرَكْتُمْ مِنْ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الْمَذْكُورَةِ حَيًّا قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ فَذَبَحْتُمُوهُ ذَبْحًا شَرْعِيًّا جَازَ لَكُمْ أَكْلُهُ. وَالْعَاشِرُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ: مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ قُرْبَةً لِلْأَصْنَامِ، وَأَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا قَدْ نَصَبُوا حِجَارَةً حَوْلَ الْكَعْبَةِ يَذْبَحُونَ عَلَيْهَا قَرَابِينَهُمُ الَّتِي يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى أَصْنَامِهِمْ.

فَيَا أَهْلَ الْإِيمَانِ، هَذِهِ عَشَرَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَطْعُومَاتِ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَكْلَ مِنْهَا لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَضَرَّةٍ وَأَذًى فِي الْأَبْدَانِ، وَلِمَا صَاحَبَ بَعْضُهَا مِنْ مَسَاسٍ بِالْأَدْيَانِ وَتَعْظِيمِ غَيْرِ اللَّهِ. ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَوْعًا مِنَ الْأَفْعَالِ الْمُحَرَّمَةِ الَّتِي ابْتَدَعَهَا أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كَمَا ابْتَدَعُوا فِي شَأْنِ الْمَطْعُومَاتِ، وَهُوَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ، أَيْ طَلَبُ مَعْرِفَةِ مَا قُسِمَ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ بِوَاسِطَةِ ضَرْبِ السِّهَامِ أَوِ الْعِيدَانِ. وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ سَفَرًا أَوْ تِجَارَةً أَوْ نِكَاحًا ضَرَبَ بِالْقِدَاحِ الَّتِي كُتِبَ عَلَى إِحْدَاهَا "افْعَلْ" وَالثَّانِيَةِ "لَا تَفْعَلْ" وَالثَّالِثَةِ "غُفْلٌ"، فَيَعْمَلُ بِمَا يَخْرُجُ لَهُ مِنْهَا بِالْقُرْعَةِ. فَاجْتَنِبُوا هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ الْمَذْكُورَةَ لِأَنَّهَا خُرُوجٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

ثُمَّ يَأْتِي نِدَاءٌ إِلَهِيٌّ مُشْرِقٌ: أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةَ كَانَ يَوْمًا فَارِقًا فِي حَيَاةِ الْأُمَّةِ؛ يَوْمَ يَئِسَ فِيهِ الْكُفَّارُ وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ فِي التَّغَلُّبِ عَلَيْكُمْ وَالْقَضَاءِ عَلَى دِينِكُمْ، فَصَارُوا أَذِلَّةً مَقْهُورِينَ أَمَامَ قُوَّتِكُمْ، فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَخَافُوا الْكُفَّارَ، بَلْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخَافُوا اللَّهَ الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ. كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، حَيْثُ نَزَلَتْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فِي التَّاسِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ يَوْمَ عَرَفَةَ، فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، عَلَى جَبَلِ عَرَفَاتٍ، قَبْلَ وَفَاةِ النَّبِيِّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِحَوَالِي ٨١ يَوْمًا. لِذَا جَاءَ فِي الْآيَةِ التَّعْقِيبُ بِبَيَانِ أَكْبَرِ نِعْمَةٍ وَأَعْظَمِ مَنَّةٍ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، حِينَ أَكْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الدِّينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ بِإِحْلَالِ الْحَلَالِ وَتَحْرِيمِ الْحَرَامِ وَبَيَانِ الْأَحْكَامِ. فِي هَذَا الْيَوْمِ نَزَلَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ لِتُعْلِنَ لِلْبَشَرِيَّةِ إِكْمَالَ الدِّينِ وَإِتْمَامَ النِّعْمَةِ، حَيْثُ لَا زِيَادَةَ وَلَا نُقْصَانَ بَعْدَ هَذَا، وَأَنَّهُ الْكَلِمَةُ الْعُلْيَا الَّتِي لَا تُقْهَرُ، وَالْمِشْعَلُ الَّذِي لَا يُطْفَأُ. فِي هَذَا الْيَوْمِ رَضِيَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ دِينًا

لِلْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا، فَلَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ دِينٌ غَيْرُ الْإِسْلَامِ. فَمَا أَعْظَمَ هَذَا التَّحَوُّلَ الَّذِي أَحْدَثَهُ هَذَا الدِّينُ، رَافِعًا الْبَشَرِيَّةَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى النُّورِ، لِيُحْيِيَ الْإِنْسَانَ مِنْ جَدِيدٍ.

وَاسْتِكْمَالًا لِمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنَ الْمَطْعُومَاتِ الْمُحَرَّمَةِ، فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَتَحَ بَابًا لِلضَّرُورَاتِ، فَمَنِ اضْطُرَّ إِلَى تَنَاوُلِ شَيْءٍ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ بِسَبَبِ مَجَاعَةٍ وَتَعَرَّضَ لِخَطَرِ الْمَوْتِ، فَلَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا غَيْرَ مَائِلٍ إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَلَا مُخْتَارٍ لَهَا، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ حِينَ أَبَاحَ لَهُ مَا أَكَلَ، لِأَنَّ الضَّرُورَاتِ تُبِيحُ الْمَحْظُورَاتِ.

وَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْوَاعًا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، شَرَعَ فِي بَيَانِ مَا أَحَلَّهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ:

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، يَسْأَلُكَ أَصْحَابُكَ مَا الَّذِي أُبِيحَ لَهُمْ مِنَ الْمَطْعُومَاتِ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا الْمُحَرَّمَاتِ؟ قُلْ لَهُمْ: أُبِيحَ لَكُمُ الْمُسْتَلَذَّاتُ مِنَ الْمَطْعُومَاتِ الَّتِي تَسْتَطِيبُهُ النُّفُوسُ ذَوَاتُ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، مِمَّا لَيْسَ بِخَبِيثٍ وَلَا ضَارٍّ بِالْبَدَنِ وَلَا بِالْعَقْلِ. أُبِيحَ لَكُمْ أَيْضًا أَكْلُ مَا اصْطَادَتْ لَكُمْ سِبَاعُ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ؛ كَالْكِلَابِ وَالصُّقُورِ الْمُدَرَّبَةِ، بِشَرْطِ أَنْ تَكُونُوا مُعَلِّمِينَ إِيَّاهَا كَيْفِيَّةَ اقْتِنَاصِ الصَّيْدِ، مِمَّا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ فُنُونِ الصَّيْدِ؛ كَانْقِيَادِ الْجَوَارِحِ لِأَمْرِكُمْ عِنْدَ الْإِرْسَالِ وَعِنْدَ الطَّلَبِ وَعِنْدَ الزَّجْرِ، وَعَلَى عَدَمِ الْأَكْلِ مِنَ الصَّيْدِ. فَكُلُوا مِنْ صَيْدِ الْجَوَارِحِ الَّذِي صَادَتْهُ لِأَجْلِكُمْ وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهُ، أَمَّا إِنْ أَكَلَتْ مِنْهُ فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَكْلُهُ. كَمَا أَنَّ عَلَيْكُمْ ذِكْرَ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ إِرْسَالِ الْجَوَارِحِ. وَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى بِامْتِثَالِ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَرِيعُ الْإِحْصَاءِ لِلْأَعْمَالِ سَرِيعُ الْمُجَازَاةِ لِلْعِبَادِ.

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)

مَظْهَرٌ آخَرُ مِنْ مَظَاهِرِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ بِكُمْ: فَمِنْ لَحْظَةِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، أَبَاحَ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمُ الْمُسْتَلَذَّاتِ مِنَ الْمَطْعُومَاتِ، كَمَا أَبَاحَ لَكُمْ أَكْلَ ذَبَائِحِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، بَيْنَمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ذَبَائِحَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ؛ كَالْمَجُوسِ وَعَبَدَةِ الْأَصْنَامِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ لَا يَدِينُ بِدِينٍ سَمَاوِيٍّ. وَذَبَائِحُكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ حَلَالٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ، فَلَا حَرَجَ أَنْ تُطْعِمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحِكُمْ أَوْ تَبِيعُوهَا لَهُمْ. وَهِيَ صَفْحَةٌ مِنْ صَفَحَاتِ سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ تُرَبِطُهُمْ بِهِ رَوَابِطُ الذِّمَّةِ وَالْعَهْدِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَبَعْدَمَا أَبَاحَ اللَّهُ تَعَالَى الطَّيِّبَاتِ مِنَ الطَّعَامِ، أَبَاحَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ. فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، إِنَّ اللَّهَ أَبَاحَ لَكُمُ التَّزَوُّجَ بِالْحَرَائِرِ الْعَفِيفَاتِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ، وَأَبَاحَ لَكُمْ أَيْضًا التَّزَوُّجَ بِالْحَرَائِرِ الْعَفِيفَاتِ مِنَ الْكِتَابِيَّاتِ، بِشَرْطِ إِذَا أَعْطَيْتُمُوهُنَّ مَهُورَهُنَّ، وَقَصَدْتُمُ الْإِحْصَانَ وَالْإِعْفَافَ عَنِ الْحَرَامِ، لَا ارْتِكَابَ الْفَاحِشَةِ عَنْ طَرِيقِ الزِّنَا الْعَلَانِيِّ، وَلَا عَنْ طَرِيقِ الزِّنَا السِّرِّيِّ (وَهُوَ اتِّخَاذُ الْعَشِيقَاتِ). حِينَئِذٍ يُبَاحُ لَكُمُ الزَّوَاجُ بِهِنَّ. وَلَكِنْ مَا نَرَاهُ الْيَوْمَ فِي بَعْضِ الشَّبَابِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رَغْبَةِ الزَّوَاجِ بِالْمَرْأَةِ الْغَرْبِيَّةِ، لَا لِغَايَةٍ سِوَى أَنَّهَا إِفْرَنْجِيَّةٌ، ثُمَّ يَضَعُ نَفْسَهُ وَأَوْلَادَهُ تَحْتَ تَصَرُّفِهَا وَقِوَامَتِهَا، فَتُنْشِئُهُمْ عَلَى تَقَالِيدِهَا وَعَادَاتِهَا الَّتِي تَأْبَاهَا تَعَالِيمُ الْإِسْلَامِ، فَهَذَا وَاقِعٌ مُرِيرٌ يُوجِبُ التَّصَدِّيَ لَهُ حِفَاظًا عَلَى عَقِيدَةِ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ. وَلِذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَقَّبَ بَعْدَ ذَلِكَ بِالتَّحْذِيرِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)

وَفِي ظِلِّ الْحَدِيثِ عَنِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الطَّعَامِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ، يَجِيءُ بَيَانُ أَحْكَامِ الطَّهَارَةِ، اعْتِبَارًا لَهَا لَوْنًا آخَرَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَهِيَ طَيِّبَاتُ الْأَرْوَاحِ. فَفِي الطَّهَارَةِ يَجِدُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ أُنْسًا وَمَتْعَةً مَا لَا يَجِدُهُ فِي سَائِرِ الْمَتَاعِ، إِنَّهُ مَتْعَةُ اللِّقَاءِ مَعَ اللَّهِ فِي جَوٍّ مِنَ الطُّهْرِ وَالْخُشُوعِ وَالنَّقَاءِ الْخَارِجِيِّ وَالدَّاخِلِيِّ. وَقَدْ حَرَصَ الْإِسْلَامُ عَلَى

نَظَافَةِ الْإِنْسَانِ وَطَهَارَتِهِ، فَجَعَلَ الْوُضُوءَ أَمْرًا مُتَجَدِّدًا فِي الْيَوْمِ، وَشَرَعَ الْغُسْلَ فِي مَنَاسَبَاتٍ تَتَكَرَّرُ فِي الْأُسْبُوعِ. وَإِذَا تَعَذَّرَ اسْتِعْمَالُ الْمَاءِ لَمْ تَسْقُطِ الطَّهَارَةُ، بَلْ شَرَعَ التَّيَمُّمَ بِقَصْدِ الطَّهَارَةِ، لَا بِقَصْدِ نَقْلِ التُّرَابِ لِلْأَعْضَاءِ.

وَفِي الْآيَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ: إِذَا أَرَدْتُمُ الْقِيَامَ إِلَى الصَّلَاةِ وَكُنْتُمْ مُحْدِثِينَ حَدَثًا أَصْغَرَ، فَعَلَيْكُمْ بِالْوُضُوءِ. وَكَيْفِيَّةُ الْوُضُوءِ: اغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ (وَيَدْخُلُ فِيهَا الْمَضْمَضَةُ وَالِاسْتِنْشَاقُ)، ثُمَّ اغْسِلُوا أَيْدِيَكُمْ مِنْ أَطْرَافِ الْأَصَابِعِ إِلَى الْمَرَافِقِ، وَامْسَحُوا رُءُوسَكُمْ بِأَيْدِيكُمُ الْمُبَلَّلَةِ بِالْمَاءِ، وَاغْسِلُوا أَرْجُلَكُمْ مِنْ أَطْرَافِ الْأَصَابِعِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ. وَبِهَذَا تَمَّ الْوُضُوءُ. وَإِنْ كُنْتُمْ مُحْدِثِينَ حَدَثًا أَكْبَرَ وَأَرَدْتُمُ الْقِيَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَعَلَيْكُمْ بِالْغُسْلِ، وَكَيْفِيَّةُ الْغُسْلِ: إِمْرَارُ الْمَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْبَدَنِ. أَمَّا إِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَعْذَارِ؛ كَالْمَرِيضِ الَّذِي يَضُرُّهُ الْمَاءُ، أَوِ الْمُسَافِرِ الَّذِي فَقَدَ الْمَاءَ، أَوْ كُنْتُمْ مُحْدِثِينَ حَدَثًا أَصْغَرَ بِقَضَاءِ الْحَاجَةِ مَثَلًا، أَوْ مُحْدِثِينَ حَدَثًا أَكْبَرَ بِمُجَامَعَةِ النِّسَاءِ، وَلَمْ تَجِدُوا مَاءً تَسْتَعْمِلُونَهُ لِطَهَارَاتِكُمْ، فَاقْصِدُوا التُّرَابَ الطَّاهِرَ لِلتَّيَمُّمِ. وَكَيْفِيَّةُ التَّيَمُّمِ هِيَ: اضْرِبُوا التُّرَابَ بِأَيْدِيكُمْ، وَامْسَحُوا بِهَا وُجُوهَكُمْ، وَبَعْدَهَا امْسَحُوا الْيَدَيْنِ.

ثُمَّ جَاءَ خِتَامُ الْآيَةِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ وَالتَّيَمُّمِ لَيْسَ الْغَايَةُ مِنْهُ التَّضْيِيقَ عَلَيْكُمْ، بَلِ اللَّهُ شَرَعَ لَكُمْ تِلْكَ الْأَحْكَامَ لِيُطَهِّرَكُمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا: ظَاهِرًا بِتَنْظِيفِ الْأَبْدَانِ، وَبَاطِنًا بِتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ بِالْهِدَايَةِ وَالْبَيَانِ، لِتَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَمَامِ نِعْمَتِهِ بِالْمُدَاوَمَةِ عَلَى طَاعَتِهِ.

وَهَكَذَا تَنْتَهِي هَذِهِ الْهِدَايَاتُ، وَفِيهَا تَوْجِيهٌ لِلْبَشَرِيَّةِ نَحْوَ حَيَاةٍ طَاهِرَةٍ نَقِيَّةٍ، فِي الْمَطْعُومَاتِ وَالْمَنَاكِحِ وَالْعِبَادَاتِ، لِيَكُونَ الْإِسْلَامُ دِينًا شَامِلًا لِكُلِّ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ.

الْدَرْسُ الثَّالِثُ

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)

بَعْدَ ذِكْرِ أَحْكَامِ المَطْعُومَاتِ وَالمَنَاكِحِ وَالعِبَادَاتِ، جَاءَ التَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ الإِيمَانِ وَبِمِيثَاقِ اللهِ تَعَالَى مَعَ المُؤْمِنِينَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَهُوَ المِيثَاقُ الَّذِي دَخَلْنَا بِهِ فِي الإِسْلَامِ. يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ، اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ العُظْمَى عَلَيْكُمْ بِالهِدَايَةِ لِلإِسْلَامِ، وَمَا صِرْتُمْ إِلَيْهِ مِنَ العِزَّةِ وَاجْتِمَاعِ الكَلِمَةِ. وَاذْكُرُوا عَهْدَ اللهِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْكُمْ حِينَ

بَايَعْتُمْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى نُصْرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ وَالقِيَامِ بِدِينِهِ وَتَبْلِيغِهِ، وَأَعْلَنْتُمْ لَهُ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَقُلْتُمْ: "سَمِعْنَا قَوْلَكَ وَأَطَعْنَا أَمْرَكَ". وَهَذِهِ هِيَ البَيْعَةُ الَّتِي كَانُوا يُبَايِعُونَ بِهَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ إِسْلَامِهِمْ، فَيَقُولُونَ: "بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا". فَيَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ، اتَّقُوا اللهَ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَلَا تَنْسُوا نِعَمَهُ، وَلَا تَنْقُضُوا مِيثَاقَهُ لَا فِي أَقْوَالِكُمْ وَلَا فِي أَفْعَالِكُمْ وَلَا فِي نِيَّاتِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِخَفَايَا نُفُوسِكُمْ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الأَفْكَارِ وَالخَوَاطِرِ، فَلَا تَضْمَرُوا إِلَّا الوَفَاءَ بِمِيثَاقِ اللهِ تَعَالَى.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)

قَدْ وَضَّحَتْ الآيَةُ الكَرِيمَةُ جَانِبًا مِنَ المِيثَاقِ الإِلَهِيِّ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الأُمَّةِ المُسْلِمَةِ، وَهُوَ القِيَامُ عَلَى البَشَرِيَّةِ بِالعَدْلِ، العَدْلِ المُطْلَقِ الَّذِي لَا يَمِيلُ مِيزَانُهُ مَعَ المَوَدَّةِ وَالعَدَاوَةِ، وَلَا يَتَأَثَّرُ بِالمَصْلَحَةِ أَوِ القَرَابَةِ، بَلْ هُوَ عَدْلٌ مُطْلَقٌ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى. فَيَا أَهْلَ الإِيمَانِ، كُونُوا قَائِمِينَ بِالعَدْلِ مُبْتَغِينَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ، لَا لِأَجْلِ النَّاسِ وَلَا الرِّيَاءِ، وَأَدُّوا الشَّهَادَةَ بِالحَقِّ وَالعَدْلِ التَّامِّ فِي أَقْوَالِكُمْ وَأَحْكَامِكُمْ عَلَى القَرِيبِ وَالبَعِيدِ وَالصَّدِيقِ وَالعَدُوِّ. وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شِدَّةُ بُغْضِكُمْ لِعَدُوِّكُمْ عَلَى تَرْكِ العَدْلِ فِيهِمْ وَالاعْتِدَاءِ عَلَيْهِمْ. اعْدِلُوا؛ فَإِنَّ العَدْلَ مَعَ الأَعْدَاءِ أَقْرَبُ لِتَقْوَاكُمْ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ. إِنَّ الإِنْسَانَ لَا يُمْكِنُهُ التَّرَقِّي إِلَى هَذَا المُسْتَوَى إِلَّا حِينَ يَتَعَامَلُ مُبَاشَرَةً مَعَ اللهِ، وَيَتَجَرَّدُ عَنْ كُلِّ مَا عَدَاهُ، وَيَسْتَشْعِرُ تَقْوَى اللهِ. وَاللهِ وَتَاللهِ وَبِاللهِ، مَا مِنْ عَقِيدَةٍ أَوْ نِظَامٍ عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ يُكَفِّلُ العَدْلَ لِلنَّاسِ جَمِيعًا - مُعْتَنِقِيهِ وَغَيْرِ مُعْتَنِقِيهِ - كَمَا يُكَفِّلُهُ لَهُمْ هَذَا الدِّينُ، وَيَجْعَلُ العَدْلَ وَاجِبًا عَلَى مُعْتَنِقِيهِ لَا يَجُوزُ الحَيْدُ عَنْهُ قِيدَ أَنْمُلَةٍ؛ يَتَعَامَلُونَ بِهِ مَعَ رَبِّهِمْ مَهْمَا لَاقَوْا مِنَ النَّاسِ مِنْ بُغْضٍ وَعَدَاوَةٍ. فَاتَّقُوا اللهَ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ؛ إِنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، عَلِيمٌ بِبَوَاطِنِ مَا تَعْمَلُونَهُ، وَسَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا.

ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ جَزَاءٍ لِلْمُؤْمِنِينَ النَّاهِضِينَ بِتَكَالِيفِ القِيَامِ، المُوَفِّينَ بِمِيثَاقِ اللهِ:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩)

هَذَا وَعْدٌ إِلَهِيٌّ لِأَهْلِ الوَفَاءِ بِعَهْدِ اللهِ وَمِيثَاقِهِ: الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَعَدَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالعَفْوِ وَالتَّجَاوُزِ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، وَلَهُمْ ثَوَابٌ كَبِيرٌ وَعَطَاءٌ جَزِيلٌ، وَهُوَ دُخُولُ الجَنَّةِ، هَذَا الجَزَاءُ الَّذِي يَلِيقُ بِمَنْ نَهَضَ بِأَعْبَاءِ التَّكْلِيفِ الإِلَهِيِّ وَكَانَ وَفِيًّا بِمِيثَاقِ اللهِ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)

وَفِي المُقَابِلِ يَأْتِي الوَعِيدُ لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَكَذَّبُوا بِالآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ عَلَى وُجُودِهِ، وَأَنْكَرُوا الآيَاتِ المُنَزَّلَةَ عَلَى رَسُولِهِ، فَهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ المَاكِثُونَ فِيهَا عَلَى الدَّوَامِ. وَمِنْ جَمِيلِ أُسْلُوبِ القُرْآنِ وَرَوْعَتِهِ الجَمْعُ بَيْنَ الوَعْدِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالوَعِيدِ لِلْكَافِرِينَ؛ لِيَظَلَّ المُسْلِمُ دَائِمَ اليَقَظَةِ مُتَذَكِّرًا مَصِيرَ الفَرِيقَيْنِ، فَيَرْغَبُ فِي الطَّاعَةِ وَيَخْشَى العِصْيَانَ.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)

ذُكِرَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ قَوْمًا مِنَ اليَهُودِ صَنَعُوا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلِأَصْحَابِهِ طَعَامًا لِيَقْتُلُوهُمْ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ بِشَأْنِهِمْ فَلَمْ يَأْتِ الطَّعَامَ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي كَعْبِ ابْنِ الأَشْرَفِ وَقَوْمِهِ حِينَ أَرَادُوا أَنْ يَغْدُرُوا بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَصْحَابِهِ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي شَأْنِ بَنِي النَّظِيرِ حِينَ أَرَادُوا أَنْ يُلْقُوا الرَّحَى عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَطْلَعَ اللهُ رَسُولَهُ عَلَى مَا تَمَالَئُوا عَلَيْهِ. فَيَا أَهْلَ الإِيمَانِ، اذْكُرُوا فَضْلَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِحِفْظِهِ إِيَّاكُمْ مِنْ أَعْدَائِكُمْ، حِينَ قَصَدُوا أَنْ يَمُدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْكُمْ لِيَبْطِشُوا وَيَفْتِكُوا بِكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى حَمَى نَبِيَّكُمْ مِنْ فَتْكِ الأَعْدَاءِ، وَصَانَكُمْ مِنَ القَتْلِ وَالإِيذَاءِ حِينَ كُنْتُمْ قِلَّةً وَأَعْدَاؤُكُمْ كَثْرَةً وَقُوَّةً، فَرَدَّ عَنْكُمْ أَذَاهُمْ وَنَجَّاكُمْ مِنْهُمْ، وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ. فَقَابِلُوا ذَلِكَ بِشُكْرِ خَالِقِكُمْ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ. وَعَلَى اللهِ وَحْدَهُ فَلْيَعْتَمِدِ المُؤْمِنُونَ؛ فَإِنَّهُ كَافِيهِمْ وَنَاصِرُهُمْ.

وَبَعْدَ هَذِهِ النِّدَاءَاتِ وَالتَّكَالِيفِ الَّتِي كَلَّفَ اللهُ بِهَا المُؤْمِنِينَ، انْتَقَلَتْ سُورَةُ المَائِدَةِ إِلَى الحَدِيثِ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الكِتَابِ مِنَ اليَهُودِ، فَذَكَرَتْ مَا أَخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ العُهُودِ:

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ

سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللهُ مِيثَاقَ المُسْلِمِينَ، نَاسَبَ ذِكْرُ مِيثَاقِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ تَعَالَى العُهُودَ المُؤَكَّدَةَ وَالمُغَلَّظَةَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ لِكَيْ يَعْمَلُوا بِمَا كَلَّفَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ تَكَالِيفَ، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَخْتَارَ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا (أَيْ: رَئِيسًا) يُمَثِّلُونَ فُرُوعَ بَيْتِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُمْ ذُرِّيَّةُ الأَسْبَاطِ، كُلُّ رَئِيسٍ يَكُونُ نَاظِرًا وَكَفِيلًا عَلَى مَنْ تَحْتَهُ لِتَوْجِيهِهِمْ وَحَثِّهِمْ عَلَى الِالْتِزَامِ بِالوَفَاءِ بِالعَهْدِ المُؤَكَّدِ. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: "إِنِّي مَعَكُمْ" (أَيْ: بِالحِفْظِ وَالرِّعَايَةِ وَالنُّصْرَةِ)، وَهَذَا وَعْدٌ عَظِيمٌ؛ فَمَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ فَلَا شَيْءَ ضِدَّهُ، مَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ فَلَنْ يَقْلَقَ وَلَنْ يَشْقَى وَلَنْ يُخْذَلَ وَلَنْ يُهْزَمَ. وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ مَعِيَّتَهُ لَهُمْ جِزَافًا، إِنَّمَا هُوَ عَقْدٌ فِيهِ شَرْطٌ وَفِيهِ جَزَاءٌ وَفِيهِ عَاقِبَةٌ مَشْرُوطَةٌ؛ شَرْطُهُ الوَفَاءُ بِالمِيثَاقِ المُغَلَّظِ وَالعَهْدِ المُؤَكَّدِ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ. ثُمَّ ذَكَرَتِ الآيَةُ خَمْسَةَ بُنُودٍ مِنْ ذَلِكَ المِيثَاقِ وَالعَهْدِ: لَئِنْ دَاوَمْتُمْ عَلَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ عَلَى وَجْهِهَا، وَأَعْطَيْتُمُ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ لِمُسْتَحِقِّيهَا، وَصَدَّقْتُمْ رُسُلِي فِي دَعْوَتِهِمْ، وَنَصَرْتُمُوهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَتَصَدَّقْتُمْ نَافِلَةً بِبَعْضِ أَمْوَالِكُمْ فِي وُجُوهِ الخَيْرِ، لَئِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَالْجَزَاءُ: "لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ". إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ عَاقِبَةً مَشْرُوطَةً فِي هَذَا المِيثَاقِ: بِأَنَّ مَنْ خَالَفَ هَذَا المِيثَاقَ المُغَلَّظَ وَنَقَضَ العَهْدَ المُؤَكَّدَ فَقَدْ حَادَ عَنِ الطَّرِيقِ وَتَاهَ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ. ذَلِكَ كَانَ مِيثَاقُ اللهِ مَعَ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَمَّنْ وَرَاءَهُمْ، وَقَدِ ارْتَضَوْهُ جَمِيعًا فَصَارَ مِيثَاقًا مَعَ كُلِّ فَرْدٍ فِيهِمْ.

فَكَيْفَ كَانَ الِالْتِزَامُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهَذَا العَهْدِ وَالمِيثَاقِ؟

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)

مَا كَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا أَنْ نَكَثُوا عُهُودَ اللهِ المُؤَكَّدَةَ وَخَانُوا مَوَاثِيقَهُ المُغَلَّظَةَ، وَبِسَبَبِ ذَلِكَ طَرَدْنَاهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا، وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ غَلِيظَةً جَافَّةً لَا تَقْبَلُ الحَقَّ وَلَا تَتَأَثَّرُ بِالْمَوْعِظَةِ وَلَا تَخْشَى النُّذُرَ. وَقَدْ بَلَغَ بِهِمُ الحَالُ فِي قَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ إِلَى أَنَّهُمْ

أَخَذُوا يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللهِ فِي التَّوْرَاةِ وَيَصْرِفُونَهُ عَنْ مَعْنَاهُ إِلَى مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، عَنْ طَرِيقِ التَّفْسِيرِ الفَاسِدِ أَوْ بِالزِّيَادَةِ تَارَةً وَبِالنَّقْصَانِ تَارَةً أُخْرَى. وَفَوْقَ هَذَا تَرَكُوا نَصِيبًا كَبِيرًا مِنَ العَمَلِ مِمَّا أُمِرُوا بِهِ فِي التَّوْرَاةِ وَبِمَا دَعَا إِلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَلَا تَزَالُ أَيُّهَا الرَّسُولُ تَكْتَشِفُ مِنَ اليَهُودِ خِيَانَةً لِلَّهِ وَمَكْرًا لِعِبَادِ اللهِ وَمُمَارَسَةً لِلغَدْرِ وَالخِيَانَةِ، إِلَّا قَلِيلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُوفُونَ بِعُهُودِهِمُ الَّتِي يُبْرِمُونَهَا. فَيَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، اعْفُ عَنْ إِسَاءَةِ هَؤُلَاءِ القَوْمِ وَلَا تُؤَاخِذْهُمْ، وَاصْفَحْ عَنْهُمْ بِمَا لَا يُؤَثِّرُ عَلَى كِيَانِ الدَّعْوَةِ وَوَحْدَةِ الأُمَّةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الإِحْسَانِ، وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ.

وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ سُورَةَ المَائِدَةِ قَدْ كَشَفَتْ لَنَا صَفْحَةً مِنْ عُهُودِ اللهِ المُؤَكَّدَةِ وَمَوَاثِيقِهِ المُغَلَّظَةِ الَّتِي نَقَضَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ وَتَوَارَثُوا نَقْضَهَا، ثُمَّ سَرَدَتْ لَنَا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ عُقُوبَاتٍ بِسَبَبِ مَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ نَقْضٍ وَخِيَانَةٍ لِتِلْكَ العُهُودِ، وَلَمْ تُغْفِلِ السُّورَةُ عَنْ رَسْمِ الطَّرِيقِ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي كَيْفِيَّةِ مُعَالَجَةِ أَمْرِهِمْ وَأُسْلُوبِ مُعَامَلَتِهِمْ بِمَا يَحْصُنُ الأُمَّةَ مِنْ شُرُورِهِمْ وَيَصُونُهَا مِنْ مَكَائِدِهِمْ.

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى جَانِبًا مِنْ قَبَائِحِ اليَهُودِ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِبَيَانِ حَالِ النَّصَارَى. فَكَمَا أَخَذْنَا العُهُودَ المُؤَكَّدَةَ عَنِ اليَهُودِ، فَكَذَلِكَ أَخَذْنَا أَيْضًا العُهُودَ المُؤَكَّدَةَ مِنَ الَّذِينَ زَكَّوْا أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّهُمْ أَتْبَاعُ المَسِيحِ وَقَالُوا: "إِنَّا نَصَارَى". وَلَكِنَّ حَالَهُمْ كَانَ كَحَالِ اليَهُودِ؛ إِذْ تَرَكُوا نَصِيبًا كَبِيرًا مِنَ العَمَلِ بِمَا أُمِرُوا بِهِ فِي الإِنْجِيلِ وَبِمَا دَعَا إِلَيْهِ عِيسَى المَسِيحُ. فَقَدْ أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالتَّوْحِيدِ، وَبَشَّرَهُمْ بِنَبِيٍّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ. وَبِسَبَبِ ذَلِكَ عَاقَبْنَاهُمْ بِأَنْ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الخُصُومَةَ وَالكَرَاهِيَةَ الشَّدِيدَةَ: يَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَسَلَّطُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، حَتَّى صَارَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ تَمْنَعُ الأُخْرَى دُخُولَ مَعْبَدِهَا. وَتَارِيخُ المَسِيحِيَّةِ شَاهِدٌ عَلَى هَذَا الشِّقَاقِ الدَّامِي بَيْنَ شَتَّى الكَنَائِسِ، وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. وَسَوْفَ يُخْبِرُهُمُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنَ القَبَائِحِ فِي الدُّنْيَا؛ لِيَنَالُوا جَزَاءَ عَمَلِهِمْ فِي الآخِرَةِ.

وَهَكَذَا تَسْتَمِرُّ سُورَةُ المَائِدَةِ فِي كَشْفِ النِّقَابِ عَنْ خِيَانَاتِ أَهْلِ الكِتَابِ، وَتُوَضِّحُ عَاقِبَةَ نَكْثِ عُهُودِ اللهِ، بَيْنَمَا تَرْسُمُ لِلْمُؤْمِنِينَ طَرِيقَ النَّجَاةِ لِلدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

الدرس الرابع.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥)

بَعْدَ اسْتِعْرَاضِ مَوْقِفِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ مِيثَاقِهِمْ مَعَ اللَّهِ، جَاءَ الْخِطَابُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ جَمِيعًا لِإِعْلَانِهِمْ بِرِسَالَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، فَهُمْ مُخَاطَبُونَ بِهَا: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَدْ بُعِثَ إِلَيْكُمْ رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِالدِّينِ الْحَقِّ، يُظْهِرُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَهُ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَيَتْرُكُ كَثِيرًا مِمَّا غَيَّرْتُمُوهُ وَكَتَمْتُمُوهُ مِمَّا لَا حَاجَةَ إِلَى إِظْهَارِهِ.

يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَهُوَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- الَّذِي أَنَارَ اللَّهُ بِهِ الطَّرِيقَ، وَأَظْهَرَ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَمَحَقَ بِهِ الشِّرْكَ وَالْأَصْنَامَ، كَمَا جَاءَكُمْ كِتَابٌ عَظِيمٌ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، مُوَضِّحٌ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي شُؤُونِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ،

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)

يُرْشِدُ اللَّهُ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَنْ أَرَادَ الْوُصُولَ إِلَى مَرْضَاةِ الرَّحْمَنِ، فَيُوَفِّقُهُمْ لِسُلُوكِ طُرُقِ النَّجَاةِ وَالسَّلَامِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَمَا أَصْدَقَ هَذَا التَّعْبِيرَ {سُبُلَ السَّلَامِ}، سَلَامٌ يُسْكِبُهُ فِي الْحَيَاةِ كُلِّهَا: سَلَامُ الضَّمِيرِ، وَسَلَامُ الْعَقْلِ، وَسَلَامُ الْجَوَارِحِ، وَسَلَامُ الْفَرْدِ، وَسَلَامُ الْأُسْرَةِ، وَسَلَامُ الْمُجْتَمَعِ، وَسَلَامُ الْأُمَّةِ، وَسَلَامُ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَسَلَامُ الْكَوْنِ. سَلَامٌ يَبْدَأُ بِهِمْ مِنْ هَهُنَا حَتَّى يُبَلِّغَهُمُ الْجَنَّةَ دَارَ السَّلَامِ، وَيُخْرِجَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ إِلَى نُورِ الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، وَهُوَ الدِّينُ الْحَنِيفِ.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)

اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ يَهْدِي إِلَى سُبُلِ السَّلَامِ، أَمَّا اتِّبَاعُ عَبَّادِ الصُّلْبَانِ فَهُوَ يَهْوِي بِهِمْ إِلَى الشِّرْكِ وَالْكُفْرَانِ. لَقَدْ كَفَرَ أُولَئِكَ النَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا كَذِبًا وَزُورًا بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَأَنَّ اللَّهَ حَلَّ فِي ذَاتِ عِيسَى وَاتَّحَدَ بِذَاتِهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَيَأْتِي الرَّدُّ عَلَيْهِمْ بِمَا يُثِيرُ فِيهِمْ مَنْطِقَ الْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ وَالْوَاقِعِ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمُجْتَرِئِينَ عَلَى مَقَامِ الْأُلُوهِيَّةِ: لَقَدْ كَذَبْتُمْ فِي ادِّعَائِكُمْ، فَمَنِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ عَذَابَ اللَّهِ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ وَيُهْلِكَ أُمَّهُ وَيُهْلِكَ أَهْلَ الْأَرْضِ جَمِيعًا؟ لَا شَكَّ بِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَمْنَعَ إِرَادَةَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَالِكُ لِأَمْرِ الْوُجُودِ كُلِّهِ. أَمَّا عِيسَى فَهُوَ عَبْدٌ مَقْهُورٌ قَابِلٌ لِلْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ كَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، وَلَوْ كَانَ إِلَهًا لَاسْتَطَاعَ تَخْلِيصَ نَفْسِهِ مِنَ الْمَوْتِ، وَأَنْتُمْ تَزْعُمُونَ بِأَنَّهُ مَاتَ مُعَذَّبًا عَلَى الصَّلِيبِ! لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، لَهُ التَّصَرُّفُ الْمُطْلَقُ فِيهَا إِيجَادًا وَإِعْدَامًا، إِحْيَاءً وَإِمَاتَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ عَلَى أَيِّ مِثَالٍ أَرَادَ، وَقَدْ خَلَقَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ كَمَا خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَأُمٍّ، وَاللَّهُ عَظِيمُ الْقُدْرَةِ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ. وَهَكَذَا تَتَجَلَّى نَصَاعَةُ التَّوْحِيدِ أَمَامَ ذَلِكَ الرَّكَامِ مِنَ الْانْحِرَافَاتِ وَالتَّصَوُّرَاتِ وَالْأَسَاطِيرِ.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)

سَاقَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَ دَعَاوِي أَهْلِ الْكِتَابِ التَّافِهَةِ، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ بِمَا يَخْرَسُ أَلْسِنَتَهُمْ، حَيْثُ قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: إِنَّنَا الْمُفَضَّلُونَ وَالْمُخْتَارُونَ؛ لِأَنَّنَا أَبْنَاءُ اللَّهِ وَالْمُحَبَّبُونَ لَدَيْهِ! هَذَا التَّصَوُّرُ لَيْسَ مُجَرَّدَ انْحِرَافٍ عَقَدِيٍّ، بَلْ تَصَوُّرٌ مَآلُهُ فَسَادُ الْحَيَاةِ كُلِّهَا، وَلَازِمُهُ غِيَابُ عَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمُؤَدَّاهُ فَتْحُ بَابِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ أَمَامَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِحُجَّةِ أَنَّ اللَّهَ يُحَابِيهِمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، وَلِذَا كَانَ الرَّدُّ عِبَارَةً عَنْ ضَرْبَةٍ قَاضِيَةٍ عَلَى هَذَا التَّصَوُّرِ الْفَاسِدِ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمَغْرُورِينَ: إِنَّ وَاقِعَكُمْ يُنَاقِضُ دَعْوَاكُمْ، فَلَوْ كُنْتُمْ أَبْنَاءَ اللَّهِ وَأَحِبَّاءَهُ كَمَا تَزْعُمُونَ، فَلِمَاذَا يُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِذُنُوبِكُمُ الَّتِي تَرْتَكِبُونَهَا؟ لِمَاذَا يُعَذِّبُكُمْ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالتِّيهِ وَالْمَسْخِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُعَذِّبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ أَيَّامًا مَعْدُودَةً كَمَا تَزْعُمُونَ؟! أَيُعَذِّبُ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ؟! لَكِنَّكُمْ قَوْمٌ تَكْذِبُونَ. فَالْحَقُّ أَنَّكُمْ بَشَرٌ

كَسَائِرِ النَّاسِ، مَخْلُوقُونَ وَمُحَاسَبُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَهُمُ الْمُنْحَرِفُونَ، وَلِلَّهِ وَحْدَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَالْجَمِيعُ مِلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمُنْتَهَى وَالْمَآبُ.

يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، يَا مَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ عَلَى أَنْبِيَائِكُمْ لِهَدَايَتِكُمْ، هَا هُوَ رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قَدْ جَاءَكُمْ لِكَيْ يُبَيِّنَ لَكُمْ شَرَائِعَ الدِّينِ وَالطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَى السَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ، وَذَلِكَ بَعْدَ انْقِطَاعٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطَمْسٍ مِنَ السُّبُلِ، وَضَلَالٍ فِي الْعَقَائِدِ، وَفَسَادٍ فِي الْأَفْكَارِ وَالْمُعَامَلَاتِ، فَكَانَتِ النِّعْمَةُ بِهِ أَتَمَّ؛ لِئَلَّا تَحْتَجُّوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَقُولُوا مُعْتَذِرِينَ: {مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ}، هَا هُوَ ذَا مُحَمَّدٌ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قَدْ أَتَاكُمْ يُبَشِّرُكُمْ بِالْخَيْرِ إِنْ آمَنْتُمْ، وَيُنْذِرُكُمْ بِسُوءِ الْمَصِيرِ إِنْ كَفَرْتُمْ، وَبِهَذَا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْكُمْ، {وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ تَتْرَى، كَمَا لَا يُعْجِزُهُ إِرْسَالُ الرُّسُلِ بَعْدَ الْفَتْرَةِ.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)

إِنَّهُ فَصْلٌ مِنْ فُصُولِ قِصَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي فَصَّلَهَا الْقُرْآنُ أَوْسَعَ تَفْصِيلٍ. يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ حَدِّثْ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ أَخْبَارِ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-؛ لِتَكُونَ لَهُمْ بُرْهَانًا عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِكَ، فَلَا مَصْدَرَ لِهَذِهِ الْحَقَائِقِ إِلَّا وَحْيُ السَّمَاءِ إِلَيْكَ. وَاذْكُرْ لَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْأَخْبَارِ خِطَابَ مُوسَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ يُذَكِّرُهُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَائِلًا لَهُمْ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِتَتَابُعِ الْأَنْبِيَاءِ فِيكُمْ مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى عَهْدِ عِيسَى، يَدْعُونَكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَتَذَكَّرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِجَعْلِكُمْ مُلُوكًا أَحْرَارًا بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ خَدَمًا عَبِيدًا يَبْطِشُ بِكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَتَذَكَّرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِإِعْطَائِكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِنْعَامِ وَالْإِكْرَامِ مِنْ فَلْقِ الْبَحْرِ، وَغَرَقِ الْعَدُوِّ، وَتَظْلِيلِ الْغَمَامِ، وَإِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ، نِعَمًا لَمْ يُعْطِ اللَّهُ أَحَدًا غَيْرَكُمْ مِنَ الْعَالَمِينَ فِي زَمَانِكُمْ.

وخِطَابُ مُوسَى لِقَوْمِهِ لَمْ يَكُنْ لِمُجَرَّدِ تَعْدَادِ النِّعَمِ، بَلْ كَانَ تُوْطِئَةً لِاخْتِبَارٍ كَبِيرٍ يَنْتَظِرُهُمْ لِيَكْشِفَ صِدْقَ إِيمَانِهِمْ وَسُرْعَةَ اسْتِجَابَتِهِمْ لِأَمْرِ نَبِيِّهِمْ، فَاسْتَمِعْ إِلَى الْقُرْآنِ وَهُوَ يَحْكِي هَذِهِ الْقِصَّةَ الْمُثِيرَةَ مِنْ قَصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ:

يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١)

هَكَذَا يَسُوقُنَا الْقُرْآنُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ إِلَى لَحْظَةٍ فَارِقَةٍ فِي تَارِيخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْقَدِيمِ. فَبَعْدَ أَنْ أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ فِي الْيَمِّ، وَنَجَّى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الظُّلْمِ، سَارَ بِهِمْ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، حَتَّى نَزَلَ قَرِيبًا مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الَّذِي كَانَ بِأَيْدِيهِمْ زَمَانَ أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، ثُمَّ ارْتَحَلَ يَعْقُوبُ وَبَنُوهُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ أَيَّامَ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا بِهَا حَتَّى خَرَجُوا مَعَ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

اِخْتَارَ مُوسَى مِنْ قَوْمِهِ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، وَأَرْسَلَهُمْ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي كَانَ يَسْكُنُهَا الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ، كَعُيُونٍ تَسْتَطْلِعُ الْأَرْضَ الْمُطَهَّرَةَ، لِيَأْتُوهُ بِخَبَرِ سُكَّانِهَا أَوَّلًا، ثُمَّ يَسْتَعِدُّوا لِمُوَاجَهَتِهِمْ وَيَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ مُقَاتِلِينَ، وَبَشَّرَهُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَيْهِمْ. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: يَا قَوْمِ أَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُطَهَّرَةَ، أَرْضَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمَا حَوْلَهُ، الَّتِي وَعَدَكُمُ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ لَكُمْ، وَلَا تَرْجِعُوا مُدْبِرِينَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ خَوْفًا مِنْ سُكَّانِهَا الْجَبَابِرَةِ، فَيَكُونَ مَالَكُمُ الْخَسْرَانَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

دَخَلَ النُّقَبَاءُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، الْأَرْضَ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ بِهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ. جَالُوا فِي أَرْجَائِهَا يَسْتَطْلِعُونَ أَخْبَارَهَا وَيُعَايِنُونَ أَحْوَالَ سُكَّانِهَا، فَرَأَوْا فِيهَا قُوَّةً عَظِيمَةً، وَأَجْسَادًا عَاتِيَةً، وَبَأْسًا شَدِيدًا، فَعَادُوا إِلَى مُوسَى. فَيَا تُرَى مَاذَا كَانَ رَدُّهُمْ وَعَلَى مَاذَا اسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ؟

قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)

بَعْدَ اسْتِطْلَاعِنَا عَلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، عَادَ النُّقَبَاءُ إِلَى مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَهُمْ يَحْمِلُونَ فِي قُلُوبِهِمْ خَوْفًا عَظِيمًا مِنْ أَهْلِهَا، وَهَمُّوا بِالرُّجُوعِ إِلَى مِصْرَ، وَقَالُوا لِمُوسَى: إِنَّ فِي هَذِهِ الْبَلْدَةِ قَوْمًا جَبَّارِينَ، ضِخَامَ الْأَجْسَامِ، أَقْوِيَاءَ الْأَبْدَانِ، لَا طَاقَةَ لَنَا بِقِتَالِهِمْ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا مَا دَامَ هَؤُلَاءِ مَوْجُودِينَ فِيهَا، فَإِنْ سَلَّمُونَا الْأَرْضَ مِنْ

غَيْرِ قِتَالٍ، وَخَرَجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ نِزَالٍ، حِينَئِذٍ سَنَدْخُلُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ! هَكَذَا كَانَ رَدُّ النُّقَبَاءِ؛ فَقَدْ تَمَلَّكَهُمُ الْخَوْفُ مِنْ مُوَاجَهَةِ الْجَبَابِرَةِ، رَغْمَ تَأْكِيدِ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَتَبَ لَهُمْ هَذِهِ الْأَرْضَ، لَكِنَّهُمْ يُرِيدُونَ نَصْرًا رَخِيصًا، نَصْرًا مُرِيحًا، نَصْرًا بِلَا جُهْدٍ وَلَا ثَمَنٍ، نَصْرًا يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ تَنَزُّلَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى.

وَنَتِيجَةُ هَذَا الرَّفْضِ وَالْجُبْنِ سَيَظْهَرُ لَهُمْ عَوَاقِبُ التَّخَاذُلِ عَنِ التَّكْلِيفِ الْإِلٰهِيِّ. وَهَكَذَا يَتَجَلَّى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْفَرْقُ بَيْنَ مَوَاقِفِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِأَمْرِ اللَّهِ وَاهْتَدَوْا بِالْقُرْآنِ وَسَلَكُوا سُبُلَ السَّلَامِ، وَبَيْنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ الَّذِينَ عَصَوْا أَمْرَ اللَّهِ وَنَقَضُوا الْمِيثَاقَ وَحَرَّفُوا الْكِتَابَ وَتَعَلَّقُوا بِالْأَمَانِيِّ، فَعُوقِبُوا بِخَسْرَانِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

الدرس الخامس.

أعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)

أَمَامَ أَبْوَابِ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ وَقَفَ نُقَبَاءُ بَنِي إِسرَائِيلَ، وَقَدِ امْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ خَوْفًا مِنْ مُوَاجَهَةِ الجَبَابِرَةِ، فَأَخَذَ كُلُّ نَقِيبٍ يُخَوِّفُ مَنْ تَحْتَهُ مِنْ بَنِي إِسرَائِيلَ، فَزَرَعُوا اليَأْسَ فِي قُلُوبِهِمْ. فِي ظِلِّ هَذِهِ الأَجْوَاءِ المُشْحُونَةِ سُمِعَ صَوْتَانِ مِنَ النُّقَبَاءِ يُنَادِيَانِ بِالثَّبَاتِ وَالإِقْدَامِ؛ لِيُكَسِّرَا جِدَارَ التَّرَدُّدِ لَدَى بَنِي إِسرَائِيلَ. رَجُلَانِ مِن أَهْلِ التَّقوَى وَالخَشْيَةِ، أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِمَا بِالتَّوفِيقِ وَاليَقِينِ وَالرَّأْيِ القَوِيمِ، اسْتَنْكَرَا إِحْجَامَ القَوْمِ عَنِ الجِهَادِ، فَقَامَا وَنَصَحَا قَائِلَيْنِ: يَا بَنِي إِسرَائِيلَ، إِنَّهُ لَا يَحُولُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ هَزِيمَةِ هَؤُلَاءِ الجَبَابِرَةِ سِوَى دُخُولِكُمْ بَابَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ، فَادْخُلُوا عَلَيهِم بَابَ المَدِينَةِ مُفَاجِئِينَ، وَبَاغِتُوهُمْ بِسُيُوفِكُمْ، فَإِذَا اقْتَحَمْتُمُ البَابَ فَإِنَّكُمْ بِإِذْنِ اللهِ مَنْصُورُونَ، فَعَلَى رَبِّكُمُ اعْتَمِدُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ.

كَانَتْ كَلِمَاتٌ مُعَدُودَةٌ، لَكِنَّهَا صَادِقَةٌ، انْطَلَقَتْ كَشُعْلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ مُلْتَهِبٍ، مُلِئَتْ ثَبَاتًا وَيَقِينًا. فَكَيْفَ تُلُقِّيَتْ هَذِهِ النَّصِيحَةُ؟

قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)

نَصِيحَةُ الرَّجُلَيْنِ الصَّادِقَيْنِ لَمْ تُلْقَ آذَانًا صَاغِيَةً، بَلْ قَابَلَهَا القَوْمُ بِالإِهْمَالِ، وَكَرَّرُوا لِمُوسَى رَفْضَهُمْ دُخُولَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ، وَقَالُوا: يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَ هَذِهِ الأَرْضَ أَطْلَاقًا، وَإِذَا كَانَ هَذَا الأَمْرُ يُهِمُّكَ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا سُكَّانَهَا، أَمَّا نَحْنُ فَهَا هُنَا فِي مَكَانِنَا قَاعِدُونَ. كَلِمَاتٌ جَارِحَةٌ، تُعَبِّرُ عَنْ صَلَاحَةٍ فِي اللِّسَانِ، وَإِفْرَاطٍ فِي العِصْيَانِ، وَعَلَامَةٍ عَلَى الخِذْلَانِ.

وَأَيْنَ بَنُو إِسرَائِيلَ الأَشْرَارُ مِنَ الصَّحَابَةِ الأَبْرَارِ، الَّذِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ: "وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسرَائِيلَ لِمُوسَى: (فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) [المائدة: ٢٤]، وَلَكِن نَقُولُ لَكَ: امْضِ وَنَحْنُ مَعَكَ، اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ".

تَأَلَّمَ مُوسَى مِن كَلَامِ قَوْمِهِ، فَلَجَأَ شَاكِيًا إِلَى رَبِّهِ:

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥)

تَأَلَّمَ مُوسَى مِن مَوْقِفِ بَنِي إِسرَائِيلَ، فَتَوَجَّهَ إِلَى رَبِّهِ حَزِينًا مُتَبَرِّئًا مِن مَقَالَةِ السُّفَهَاءِ، فَقَالَ: رَبِّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا سُلْطَانَ لِي عَلَى قَوْمِي أُلْزِمُهُمْ بِطَاعَتِكَ سِوَى نَفْسِي وَأَخِي هَارُونَ، فَنَحْنُ قَائِمُونَ عَلَى طَاعَتِكَ، لِذَا افْصِلْ وَفَارِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِي بِمَا يَسْتَحِقُّونَ بِحُكْمِكَ العَادِلِ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ بَنِي إِسرَائِيلَ لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَى الخُيْرِيَّةِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَقْبُولُونَ عِندَ اللهِ وَلَوْ لَبِسُوا ثِيَابَ الدِّينِ عَلَى أَجْسَادٍ قَذِرَةٍ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! لَقَدْ فَضَحَهُمُ الامْتِحَانُ، وَكَشَفَ تَدَيُّنَهُمُ الأَجْوَفَ، فَأَتَاهُمْ قَرَارُ التِّيهِ:

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)

اسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى دُعَاءَ مُوسَى، وَجَاءَ الحُكْمُ الفَاصِلُ، وَنَزَلَتِ العُقُوبَةُ بِبَنِي إِسرَائِيلَ بِأَنْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِمْ دُخُولَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ مَدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، يَظَلُّونَ حَائِرِينَ ضَائِعِينَ فِي الصَّحْرَاءِ، لَا يَهْتَدُونَ لِطَرِيقٍ وَلَا يَسْتَقِرُّونَ فِي مَكَانٍ، حَتَّى رُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَإِذَا أَصْبَحُوا وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي المَكَانِ ذَاتِهِ. وَنَهَى اللهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَحْزَنَ وَيَأْسَفَ عَلَيهِمْ، فَمَا حَلَّتْ عَلَيهِمْ تِلْكَ العُقُوبَةُ إِلَّا بِسَبَبِ تَمَرُّدِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى.

ذَكَرَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ أَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ كَانَا فِي التِّيهِ مَعَ بَنِي إِسرَائِيلَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَهَّلَ عَلَيهِمَا الأَمْرَ كَمَا سَهَّلَ النَّارَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَمَاتَا خِلَالَ فَتْرَةِ التِّيهِ،

وَهَلَكَ كُلُّ مَنْ قَالَ: (إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا)، وَنَشَأَ جِيلٌ آخَرُ مِن ذَرَارِيِّهِمْ، فَقَامَ يُوشَعُ ابْنُ نُونٍ – وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ مُوسَى وَوَصِيُّهُ – وَسَارَ بِبَنِي إِسرَائِيلَ إِلَى حَرْبِ الجَبَّارِينَ، وَقَهَرَهُمْ، وَدَخَلَ الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ.

إِنَّ المُتَأَمِّلَ فِي هَذِهِ القِصَّةِ يَجِدُ أَنَّ فِرْعَوْنَ بِسَبَبِ ظُلْمِهِ وَطُغْيَانِهِ أَفْسَدَ فِطْرَةَ بَنِي إِسرَائِيلَ، وَطَبَعَ عَلَيهَا بِطَابِعِ المَهَانَةِ وَالمَذَلَّةِ، فَلَمْ تُطَاوِعْهُمْ أَنْفُسُهُمُ المُهَانَةُ عَلَى قِتَالِ الجَبَّارِينَ. إِلَّا أَنَّ تَحْقِيقَ وَعْدِ اللهِ تَعَالَى لِبَنِي إِسرَائِيلَ بِدُخُولِ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ، إِنَّمَا تَمَّ عَلَى وَفْقِ سُنَّةِ اللهِ فِي طَبِيعَةِ الاجْتِمَاعِ البَشَرِيِّ، إِذْ هَلَكَ ذَلِكَ الجِيلُ الَّذِي نَشَأَ فِي الوَثَنِيَّةِ وَالعُبُودِيَّةِ، وَأَتَى بَعْدَهُ جِيلٌ جَدِيدٌ تَنَفَّسَ حُرِّيَّةَ البَدَاوَةِ، وَعَاشَ فِي ظِلِّ عَدْلِ الشَّرِيعَةِ، وَاسْتَضَاءَ بِنُورِ آيَاتٍ إِلَهِيَّةٍ، فَحَمَلَ السِّلَاحَ، وَدَخَلَ عَلَى الجَبَّارِينَ البَابَ، وَتَحَقَّقَ وَعْدُ اللهِ، فَكَانَ النَّصْرُ وَالفَتْحُ وَالغَلَبَةُ.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)

انْتَقَلَتِ السُّورَةُ إِلَى قِصَّةٍ أُخْرَى تَرْوِي تَفَاصِيلَ أَوَّلِ جَرِيمَةِ قَتْلٍ ارْتُكِبَتْ فِي التَّارِيخِ؛ لِتُؤَكِّدَ أَنَّ التَّمَرُّدَ عَلَى العُهُودِ لَيْسَ جَدِيدًا عَلَى البَشَرِيَّةِ. يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الكَرِيمُ، اقْصُصْ عَلَى النَّاسِ خَبَرَ ابْنَيْ آدَمَ، وَهُمَا: قَابِيلُ وَهَابِيلُ، وَهُوَ خَبَرُ حَقٍّ وَنَبَأُ صِدْقٍ لَا مِرْيَةَ فِيهِ. إِذْ قَدَّمَ كُلُّ أَخٍ مِنْهُمَا شَيْئًا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى. وَقَدْ ذَكَرَ المُفَسِّرُونَ سَبَبَ هَذَا القُرْبَانِ: أَنَّ حَوَّاءَ كَانَتْ تَلِدُ فِي كُلِّ بَطْنٍ ذَكَرًا وَأُنْثَى، وَكَانَ آدَمُ لَا يُزَوِّجُ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى مِنْ بَطْنٍ وَاحِدٍ، بَلْ يُزَوِّجُ ذَكَرَ هَذَا البَطْنِ أُنْثَى مِنْ بَطْنٍ آخَرَ. فَلَمَّا أَرَادَ آدَمُ أَنْ يُزَوِّجَ قَابِيلَ أُخْتَ هَابِيلَ، وَيُزَوِّجَ هَابِيلَ أُخْتَ قَابِيلَ، رَضِيَ هَابِيلُ وَأَبَى قَابِيلُ؛ لِأَنَّ تَوْأَمَتَهُ كَانَتْ أَجْمَلَ، فَاتَّفَقَا عَلَى أَنْ يُقَدِّمَا قُرْبَانًا، فَأَيُّهُمَا قُبِلَ قُرْبَانُهُ تَزَوَّجَهَا. وَكَانَتْ عَلَامَةُ القَبُولِ أَنْ تَنْزِلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُ القُرْبَانَ المُتَقَبَّلَ وَتَتْرُكُ غَيْرَ المُتَقَبَّلِ.

كَانَ قَابِيلُ صَاحِبَ زَرْعٍ، فَقَرَّبَ أَرْذَلَ زَرْعِهِ، وَكَانَ هَابِيلُ صَاحِبَ غَنَمٍ، فَقَرَّبَ أَحْسَنَ كَبْشٍ عِنْدَهُ، فَقَبِلَ اللهُ تَعَالَى قُرْبَانَ هَابِيلَ لِصِدْقِهِ وَإِخْلَاصِهِ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ قَابِيلَ لِسُوءِ نِيَّتِهِ وَعَدَمِ تَقْوَاهُ.

اشْتَعَلَتْ نَارُ الحَسَدِ فِي قَلْبِ قَابِيلَ، وَتَوَعَّدَ أَخَاهُ بِالقَتْلِ، لَكِنَّ هَابِيلَ الطَّيِّبَ النَّقِيَّ قَالَ لِأَخِيهِ وَاعِظًا وَنَاصِحًا: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ * [المائدة: ٢٨].

لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)

ثُمَّ انتَقَلَ الأَخُ التَّقِيُّ مِن مَرْحَلَةِ النُّصْحِ إِلَى مَرْحَلَةِ التَّذْكِيرِ بِحُقُوقِ الأُخُوَّةِ وَمَا تَقْتَضِيهِ مِنْ بِرٍّ وَتَسَامُحٍ، فَقَالَ لَهُ: إِنْ مَدَدْتَ إِلَيَّ يَدَكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ظُلْمًا وَحَسَدًا، فَلَنْ أُعَامِلَكَ بِمِثْلِ صَنِيعِكَ، وَالَّذِي يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ هُوَ خَوْفِي مِنَ اللهِ خَالِقِ جَمِيعِ الخَلَائِقِ وَمَالِكِهَا. قِيلَ: كَانَ هَابِيلُ أَقْوَى مِنْ قَابِيلَ، وَلَكِنَّهُ تَحَرَّجَ عَنْ قَتْلِهِ، وَاسْتَسْلَمَ لَهُ خَوْفًا مِنَ اللهِ.

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩)

ثُمَّ انتَقَلَ هَابِيلُ مِن مَرْحَلَةِ التَّذْكِيرِ بِحُقُوقِ الأُخُوَّةِ إِلَى التَّخْوِيفِ مِنْ عِقَابِ الآخِرَةِ، فَقَالَ لِأَخِيهِ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَتَحَمَّلَ أَنْتَ إِثْمَ قَتْلِي مَعَ آثَامِ ذُنُوبِكَ السَّابِقَةِ، فَتَكُونَ بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَهَذِهِ هِيَ عُقُوبَةُ كُلِّ ظَالِمٍ.

وَإِلَى هُنَا نَرَى أَنَّ هَابِيلَ قَدِ اسْتَعْمَلَ فِي صَرْفِ أَخِيهِ عَنْ جَرِيمَةِ القَتْلِ كُلَّ وَسِيلَةٍ حَكِيمَةٍ مُمْكِنَةٍ. فَكَيْفَ كَانَ وَقْعُ ذَلِكَ فِي نَفْسِ أَخِيهِ قَابِيلَ؟

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)

نَفْسُ قَابِيلَ الحَاسِدَةُ زَيَّنَتْ لَهُ وَسَهَّلَتْ قَتْلَ أَخِيهِ هَابِيلَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، فَقَتَلَهُ، وَأَصْبَحَ بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنَ الخَاسِرِينَ، إِذْ خَسِرَ إِيمَانَهُ، وَخَسِرَ أَخَاهُ.

أَقُولُ: مَا أَعْمَقَ هَذِهِ الصُّورَةَ الَّتِي يَرْسُمُهَا القُرْآنُ فِي هَذَا الصِّرَاعِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ! فَقَدْ يَبْدُو المَشْهَدُ ظَاهِرِيًّا وَكَأَنَّ القَاتِلَ قَدْ غَلَبَ وَانْتَصَرَ، وَلَكِنَّ القُرْآنَ يُصَحِّحُ هَذَا المَفْهُومَ بِأَنَّ مَنْ صَانَ نَفْسَهُ عَنِ الحَرَامِ فَهُوَ المُنْتَصِرُ وَلَوْ كَانَ مَقْتُولًا، وَمَنْ نَكَثَ العَهْدَ وَتَجَرَّأَ عَلَى الظُّلْمِ فَهُوَ الخَاسِرُ حَتَّى وَلَوِ ارْتَفَعَتْ رَايَتُهُ عَلَى أَعْلَى قِمَمِ الأَرْضِ. فَالعَاقِبَةُ لَيْسَتْ لِصَخَبِ اللَّحْظَةِ، بَلْ لِلْحِسَابِ الأُخْرَوِيِّ الَّذِي لَا يُظْلَمُ فِيهِ أَحَدٌ. وَهَكَذَا يَتَلَاشَى بَرِيقُ النَّصْرِ الظَّاهِرِيِّ أَمَامَ مَنْ ظَنَّ نَفْسَهُ مُنْتَصِرًا وَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ مُنْخَرِطٌ فِي زُمْرَةِ المُجْرِمِينَ الخَاسِرِينَ. إِنَّهُ مِيزَانُ القُرْآنِ العَادِلُ الَّذِي يُعِيدُ تَشْكِيلَ مَفَاهِيمِ البَشَرِ حَوْلَ الرِّبْحِ وَالخَسَارَةِ.

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)

بَعْدَ أَنْ قَتَلَ قَابِيلُ هَابِيلَ أَصَابَتْهُ حَسْرَةٌ وَحَيْرَةٌ، وَلَمْ يَدْرِ مَا يَصْنَعُ بِجُثَّةِ أَخِيهِ. ذَكَرَ القُرْطُبِيُّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ غُرَابَيْنِ فَاقْتَتَلَا حَتَّى قَتَلَ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، فَأَخَذَ الغُرَابُ يَنْبِشُ التُّرَابَ بِمِنْقَارِهِ وَرِجْلَيْهِ؛ لِيَحْفِرَ فِي الأَرْضِ لِيُشَاهِدَهُ قَابِيلُ فَيَفْطَنَ لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي مِنْ خِلَالِهَا يُغَطِّي جَسَدَ أَخِيهِ القَتِيلِ. وَكَانَ قَابِيلُ أَوَّلَ مَنْ قَتَلَ، فَتَعَلَّمَ حِينَئِذٍ مِنَ الغُرَابِ كَيْفَ يَدْفِنُ المَيِّتَ. فَلَامَ قَابِيلُ نَفْسَهُ وَقَالَ: يَا وَيْلَتَا! كَيْفَ ضَعُفْتُ عَنْ فِعْلِ مَا فَعَلَهُ هَذَا الغُرَابُ فَأُغَطِّيَ جَسَدَ أَخِي فِي التُّرَابِ؟! فَصَارَ نَادِمًا عَلَى عَدَمِ الاهْتِدَاءِ إِلَى طَرِيقَةِ الدَّفْنِ، وَلَيْسَ عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ نَدِمَ عَلَى قَتْلِهِ لَكَانَتْ تِلْكَ النَّدَامَةُ تَوْبَةً لَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتُبْ.

قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ – أَيْ نَصِيبٌ – مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتْلَ". وَالحَدِيثُ مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)

اللهُ تَعَالَى يُرَبِّي عِبَادَهُ عَلَى ضَوْءِ مَا وَقَعَ فِي تَارِيخِ البَشَرِ، وَيَشْرَعُ لَهُمْ مِنَ الأَحْكَامِ مَا يَجْنِبُهُمْ مَزَالِقَ الأَقْوَامِ وَالأُمَمِ المَاضِيَةِ. فَمِنْ أَجْلِ جَرِيمَةِ القَتْلِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا قَابِيلُ، حَكَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسرَائِيلَ فِي التَّوْرَاةِ مَا يُرَجِّعُ المُعْتَدِي وَيُبَشِّرُ المُتَّقِينَ: أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا وَاحِدَةً ظُلْمًا، دُونَ أَنْ تَكُونَ مُسْتَحِقَّةً لِلْقَتْلِ بِسَبَبِ قِصَاصٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا؛ لِأَنَّ القَاتِلَ بِجَرِيمَتِهِ هَتَكَ حُرْمَةَ الإِنْسَانِيَّةِ بِأَسْرِهَا، وَسَنَّ القَتْلَ وَجَرَّأَ النَّاسَ عَلَيهِ. وَفِي المُقَابِلِ، مَنْ تَسَبَّبَ فِي بَقَاءِ حَيَاةِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَاسْتَنْقَذَهَا مِنَ الهَلَكَةِ، فَهُوَ كَإِحْيَاءِ النَّاسِ جَمِيعًا؛ لِأَنَّهُ حَافَظَ عَلَى حُرْمَةِ الحَيَاةِ وَسَلَامَتِهَا.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ اللهِ تَعَالَى إِلَى بَنِي إِسرَائِيلَ بِالحُجَجِ وَالمُعْجِزَاتِ، حَامِلَةً مَعَهَا الحَقَّ وَنُورَ الهِدَايَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ بَنِي إِسرَائِيلَ مُتَجَاوِزُونَ لِحُدُودِ اللهِ، مُسْرِفُونَ فِي المَعَاصِي وَالخَطِيئَاتِ، يَعْلَمُونَ قُبْحَ جَرِيمَةِ القَتْلِ، وَمَعَ ذَلِكَ تَجَرَّأُوا عَلَى قَتْلِ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَذَلِكَ لِقَسَاوَةِ قُلُوبِهِمُ الَّتِي أَبْعَدَتْهُمْ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ وَطَاعَتِهِ، وَجَعَلَتْهُمْ فِي طَرِيقِ الغَوَايَةِ.

الدرس السادس

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣)

بَعْدَ تَغْلِيظِ الْإِثْمِ فِي الْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقٍّ، جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ لِتُوَضِّحَ أَحَدَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُبِيحُ الْقَتْلَ وَتَسْتَوْجِبُ الْقِصَاصَ؛ لِتَحْقِيقِ الْعَدْلِ. فَالَّذِينَ يُبَارِزُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِالْعَدَاوَةِ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْقَتْلِ وَإِخَافَةِ السَّبِيلِ، وَقَطْعِ الطَّرِيقِ، وَنَهْبِ الْأَمْوَالِ، وَانْتِهَاكِ الْحُرُمَاتِ، وَالتَّعَرُّضِ لِلنَّاسِ بِالْأَذَى فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ أَعْرَاضِهِمْ، هَؤُلَاءِ عُقُوبَتُهُمْ: الْقَتْلُ أَوِ الصَّلْبُ أَوْ قَطْعُ أَيْدِيهِمُ الْيُمْنَى مَعَ الْأَرْجُلِ الْيُسْرَى، أَوِ الطَّرْدُ مِنَ الْبَلَدِ الَّذِي هُمْ فِيهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ. وَهَذِهِ عُقُوبَاتٌ مُشَدَّدَةٌ تُضْمِنُ اسْتِقْرَارَ الْمُجْتَمَعِ وَرَدْعَ الْمُجْرِمِينَ، فَهِيَ لَهُمْ مَذَلَّةٌ وَفَضِيحَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ هُوَ عَذَابُ جَهَنَّمَ.

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى تَرْتِيبِ الْأَحْكَامِ وَتَوْزِيعِهَا عَلَى مَا يَلِيقُ بِهَا مِنَ الْجِنَايَاتِ: فَمَنْ قَتَلَ قُتِلَ، وَمَنْ قَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالَ قُتِلَ وَصُلِبَ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى أَخْذِ الْمَالِ فَقَطْ قُطِعَتْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ مِنْ خِلَافٍ، وَمَنْ أَخَافَ فَقَطْ نُفِيَ مِنَ الْأَرْضِ. وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)

قُطَّاعُ الطَّرِيقِ وَالْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، إِنْ تَابُوا وَرَجَعُوا قَبْلَ التَّمَكُّنِ مِنَ الْقَبْضِ عَلَيْهِمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ بِهِمْ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ بِهِمْ إِسْقَاطُ الْعُقُوبَةِ عَنْهُمْ.

وَبَعْدَ التَّحْذِيرِ مِنَ الْفَسَادِ وَبَيَانِ عُقُوبَتِهِ، جَاءَ تَوْجِيهُ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ إِلَى ثَلَاثِ وَسَائِلَ لِتَحْقِيقِ النَّجَاةِ وَالْفَلَاحِ:

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)

شَرَعَ اللَّهُ عُقُوبَةَ قَطْعِ الطَّرِيقِ، وَبَعْدَهَا عُقُوبَةُ السَّرِقَةِ كَمَا سَيَأْتِي، وَبَيْنَ التَّشْرِيعَيْنِ نَبَّهَ إِلَى ضَرُورَةِ تَقْوَى اللَّهِ؛ فَقَابِيلُ إِنَّمَا ضَاعَ لِفَرَاغِ قَلْبِهِ مِنَ التَّقْوَى. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ، وَاطْلُبُوا مَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى اللَّهِ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْخَيْرَاتِ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِإِعْلَاءِ دِينِهِ وَمُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِ، لَعَلَّكُمْ تَفُوزُونَ بِكَرَامَتِهِ وَثَوَابِهِ.

وَالْمُتَأَمِّلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يَرَى أَنَّهَا رَسَمَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ دَرْبَ الْهُدَاةِ وَالسَّعَادَةِ، فَأَرْشَدَتْهُمْ إِلَى ثَلَاثِ وَسَائِلَ لِتَحْقِيقِ غَايَةٍ عَظِيمَةٍ. أَمَّا الْوَسَائِلُ فَهِيَ: تَقْوَى اللَّهِ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِالطَّاعَةِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَأَمَّا الْغَايَةُ فَهِيَ الْفَلَاحُ وَالنَّجَاحُ لِمَنْ سَارَ عَلَى الطَّرِيقِ. أَمَّا مَنْ أَعْرَضَ عَنْ هَذِهِ الْوَسَائِلِ وَاخْتَارَ الْكُفْرَ وَالْعِصْيَانَ، فَغَايَتُهُ الثُّبُورُ وَالْخُسْرَانُ، وَمَصِيرُهُ فِي الْآخِرَةِ إِلَى النِّيرَانِ.

هَذَا، وَمِمَّا يَجِبُ التَّنْبِيهُ إِلَيْهِ وَالتَّأْكِيدُ عَلَيْهِ: أَنَّ الْمُسْلِمَ عَلَيْهِ اتِّخَاذُ الْوَسِيلَةِ الْمَشْرُوعَةِ لِلتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، مِثْلَ التَّقْوَى وَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالدُّعَاءِ وَالصَّدَقَةِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَعَلَيْهِ الْحَذَرُ مِنَ الِانْحِرَافِ فِي هَذَا الْبَابِ بِاتِّخَاذِ الْوَسِيلَةِ غَيْرِ الْمَشْرُوعَةِ، كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ الْجُهَلَاءِ مِنَ اتِّخَاذِ الْأَنْبِيَاءِ أَوِ الْأَوْلِيَاءِ أَوِ الصَّالِحِينَ وَسَطَاءَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَالِقِ. بَلْ قَدْ صَرَّحَ الْقُرْآنُ بِأَنَّ هَذَا هُوَ مَسْلَكُ الْمُشْرِكِينَ، حَيْثُ قَالُوا: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ}. (سورة الزمر: ٣). نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الْفَهْمَ الصَّحِيحَ لِدِينِهِ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بِالْوَسَائِلِ الْمَشْرُوعَةِ، وَأَنْ يَجَنِّبَنَا الْبِدَعَ وَالضَّلَالَاتِ، آمِينَ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا، لَوْ أَنَّ لَهُمْ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَمْوَالٍ وَخَيْرَاتٍ وَمَنَافِعَ، وَضِعْفَهُ مَعَهُ، وَقَدَّمُوا كُلَّ ذَلِكَ فِدْيَةً لِيُخَلِّصُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ سُنَّتَهُ قَدِ اقْتَضَتْ أَنْ تَكُونَ نَجَاةُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَوَقِّفَةً عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَمَنْ فَقَدَ هَذَا الزَّادَ اسْتَحَقَّ أَوْجَعَ الْعَذَابِ.

يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧)

إِنَّهُ مَشْهَدٌ يَرْوِيهِ الْقُرْآنُ: أُمْنِيَّةُ الْكُفَّارِ بَعْدَ أَنْ ذَاقُوا عَذَابَ النَّارِ، فَصَارُوا يَتَمَنَّوْنَ الْخُرُوجَ مِنْهَا بِأَيِّ سَبِيلٍ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! فَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا أَبَدًا، وَلَهُمْ عَذَابٌ دَائِمٌ لَا يَنْقَطِعُ. لَقَدْ كَانَ الْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ أَمْرٌ يَسِيرٌ، وَلَكِنَّهُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ عَظِيمُ الْقَدْرِ وَالْقِيمَةِ: أُمِرُوا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ فَأَبَوْا إِلَّا الْكُفْرَ. قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ اللَّهُ: قَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَلَّا تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ». يَا اللَّهُ، كَمْ هُوَ مُؤْلِمٌ أَنْ يَكْتَشِفَ الْإِنْسَانُ فِي

نِهَايَةِ الْمَطَافِ أَنَّهُ كَانَ بِإِمْكَانِهِ النَّجَاةُ بِأَيْسَرِ وَسِيلَةٍ، وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ بِنَفْسِهِ طَرِيقَ الْهَلَاكِ.

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَتِ السُّورَةُ عُقُوبَةَ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ عَلَانِيَةً، انْتَقَلَتِ السُّورَةُ لِبَيَانِ عُقُوبَةِ مَنْ يَأْخُذُ الْأَمْوَالَ بِغَيْرِ حَقٍّ خُفْيَةً، وَهُوَ السَّارِقُ. وَالْخِطَابُ لِوُلَاةِ الْأَمْرِ الَّذِينَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ فِي تَنْفِيذِ الْحُدُودِ: بِأَنَّ السَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ، اقْطَعُوا الْيَدَ الْيُمْنَى لِكُلٍّ مِنْهُمَا، مُجَازَاةً لَهُمَا عَلَى كَسْبِهِمَا الْقَبِيحِ، وَعُقُوبَةً مِنَ اللَّهِ لَهُمَا، وَزَجْرًا لِغَيْرِهِمَا. وَاللَّهُ تَعَالَى: غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، حَكِيمٌ فِي شَرَائِعِهِ وَحُدُودِهِ؛ عَزِيزٌ فِي تَشْرِيعِ الرَّدْعِ، حَكِيمٌ فِي إِيجَابِ الْقَطْعِ.

نَعَمْ، إِنَّ الْجَرَائِمَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ خَطِيرَةُ الْآثَارِ، وَلِهَذَا تَوَلَّى اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ الْحُكْمَ فِيهَا؛ لِأَنَّ النَّاسَ قَدْ يَتَهَاوَنُونَ فِي أَمْرِهَا. بَلْ نَجِدُ أَصْوَاتًا نِشَازًا تَتَطَاوَلُ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ، كَمَا فَعَلَ الْأَعْلَاءُ الْمَعَرِّيُّ الزَّنْدِيقُ حَيْثُ اعْتَرَضَ عَلَى حَدِّ السَّرِقَةِ بِقَوْلِهِ:

يَدٌ بِخَمْسِ مِائَاتِ عَسْجَدٍ وَدِيَتْ مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ؟

تَنَاقُضٌ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ وَنَسْتَعِيذُ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

فَهَبَّعُلَمَاءُ الشَّرِيعَةِ يَرُدُّونَ عَلَيْهِ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ عَبْدُ الْوَهَّابِ الْمَالِكِيُّ، وَلِلَّهِ دَرُّهُ حِينَ أَجَابَ:

قُلْلِلْمَعَرِّيِّ عَارٍ أَيُّهَا الْعَارِي جَهِلَ الْفَتَى وَهُوَ عَنْ ثَوْبِ التُّقَى عَارِي

لَا تَقْدَحَنَّبِنُقُودِ الشَّرْعِ عَنْ شُبَهٍ شَرَائِعُ الدِّينِ لَا تُقْدَحُ بِأَشْعَارِ

عِزُّالْأَمَانَةِ أَغْلَاهَا وَأَرْخَصَهَا ذُلُّ الْخِيَانَةِ فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي

فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩)

بَابُ اللَّهِ مَفْتُوحٌ، وَعَطَاؤُهُ مَمْنُوحٌ. فَإِذَا تَابَ السَّارِقُ عَنِ السَّرِقَةِ وَأَصْلَحَ سِيرَتَهُ وَعَمَلَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ تَفَضُّلًا مِنْهُ؛ فَاللَّهُ غَفُورٌ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ، رَحِيمٌ بِهِمْ. لَكِنْ إِذَا وَصَلَ الْأَمْرُ إِلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ، فَلَا يُسْقِطُ عَنْهُ حَدَّ السَّرِقَةِ.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

بِصِيغَةِ الِاسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِيِّ، نَبَّهَ اللَّهُ عِبَادَهُ إِلَى وَاسِعِ مُلْكِهِ، وَشُمُولِ قُدْرَتِهِ، وَنَفَاذِ إِرَادَتِهِ. يَا أَيُّهَا الْعَاقِلُ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ السُّلْطَانُ الْقَاهِرُ وَالْمُلْكُ الْبَاهِرُ، وَبِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. فَاعْمَلْ بِمُقْتَضَى هَذَا الْعِلْمِ بِأَنْ تَكُونَ مُطِيعًا لِخَالِقِكَ، مُلْتَزِمًا بِشَرَائِعِهِ. فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ وَالْمَالِكُ وَصَاحِبُ السُّلْطَانِ الْمُطْلَقِ فِي خَلْقِهِ؛ فَلَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُعَذِّبَ مَنْ يَشَاءُ، وَأَنْ يَرْحَمَ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

وَبَعْدَ بَيَانِ التَّكَالِيفِ وَالشَّرَائِعِ الَّتِي تَقُودُ الْإِنْسَانَ لِلسَّعَادَةِ، انْتَقَلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ مَكْرِ الْيَهُودِ وَوَسَائِلِهِمْ لِكَيْدِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ لِتَحْذِيرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ مَكَائِدِهِمْ، تَسْلِيَةً لَهُ وَشَرْحًا لِصَدْرِهِ.

يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)

فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَأَى يَهُودِيًّا مُجْلُودًا مُحَمَّمًا (أَيْ سَوَّدُوا وَجْهَهُ) بِسَبَبِ الزِّنَا، فَسَأَلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْيَهُودَ: «أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟» قَالُوا: نَعَمْ. فَدَعَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَجُلًا مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ، فَسَأَلَهُ: «أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟» فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: لَا، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ، بَلْ نَجِدُ الرَّجْمَ. وَلَكِنَّ الزِّنَا كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ. ثُمَّ اجْتَمَعْنَا عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ. فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ» فَأَمَرَ بِالزَّانِي فَرُجِمَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، لَا تَتَأَثَّرْ وَلَا يَحْزُنْكَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يَتَسَابَقُونَ نَحْوَ الْكُفْرِ وَيَقَعُونَ فِيهِ بِسُرْعَةٍ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ آمَنَّا وَقُلُوبُهُمْ كَافِرَةٌ. وَلَا يَحْزُنْكَ الْيَهُودُ الَّذِينَ يُكْثِرُونَ الِاسْتِمَاعَ وَالْإِصْغَاءَ إِلَى أَكَاذِيبِ وَمُفْتَرَيَاتِ أَحْبَارِهِمْ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهَا، وَيُكْثِرُونَ الِاسْتِمَاعَ وَالْإِصْغَاءَ لِأَوَامِرِ قَوْمٍ آخَرِينَ مِنَ الْيَهُودِ أَعْرَضُوا عَنْكَ فَلَا يَأْتُونَ مَجْلِسَكَ تَكَبُّرًا. هَؤُلَاءِ الْمُعْرِضُونَ عَنْ مَجْلِسِكَ يُبَدِّلُونَ مَا جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ بِمَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، كَتَغْيِيرِهِمْ لِحَدِّ الزَّانِي مِنَ الرَّجْمِ إِلَى الْجَلْدِ وَالتَّحْمِيمِ مُرَاعَاةً لِأَشْرَافِهِمْ حِينَ انْتَشَرَ فِيهِمُ الزِّنَا. إِنَّهُمْ يَقُولُونَ لِأَتْبَاعِهِمْ: إِنْ وَافَقَ حُكْمُ مُحَمَّدٍ أَهْوَاءَكُمْ فَاتَّبِعُوهُ، وَإِنْ خَالَفَهَا فَاحْذَرُوا مِنْهَا. وَنُلَاحِظُ كَيْفَ أَنَّ الْآيَةَ سَاوَتْ بَيْنَ الْمُنَافِقِينَ وَبَيْنَ الْيَهُودِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَقْصُودٌ؛ فَكِلَا الْفَرِيقَيْنِ فَاسِدُ الْقَلْبِ قَبِيحُ السُّلُوكِ، حَرْبٌ عَلَى شَرِيعَةِ السَّمَاءِ. فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ رَدُّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ: {وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}. هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ مِنْ رِجْسِ الْكُفْرِ وَخَبَثِ الضَّلَالَةِ، لِقُبْحِ صَنِيعِهِمْ وَسُوءِ اخْتِيَارِهِمْ. وَعُقُوبَتُهُمْ: فِي الدُّنْيَا ذُلٌّ وَهَوَانٌ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ فِي النِّيرَانِ.

الدرس السابع.

احْفَظْ مَائِدَةً مِنَ الرَّحْمَنِ هِيَ سُورَةٌ وَضَّاءَةُ الْأَرْكَانِ، جَاءَتْ بِتَوْحِيدٍ وَشَرْعٍ رَاسِخٍ، فَبَنَتْ بِفَضْلِ اللَّهِ خَيْرَ كِيَانِي، وَدَعَتْ إِلَى حِفْظِ الْحُقُوقِ وَعَظَّمَتْ شَأْنَ الْعُقُودِ وَحُرْمَةِ الْإِخْوَانِ. يَا طِيبَ مَائِدَةٍ أَتَتْ بِمَوَائِدَ لِلْفِكْرِ وَالْوِجْدَانِ وَالْأَكْوَانِ. أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣)

قَوْمٌ يَمْلَأُونَ أَسْمَاعَهُمْ بِالْبَاطِلِ مِنَ الْكَلَامِ، وَيَمْلَأُونَ بُطُونَهُمْ بِالْحَرَامِ مِنَ الطَّعَامِ، وَكِلَاهُمَا غِذَاءَانِ خَبِيثَانِ يُفْسِدَانِ الْبَدَنَ وَالرُّوحَ وَيُبْعِدَانِ الْعَبْدَ عَنِ الْهِدَايَةِ وَالنُّورِ. الْيَهُودُ يُكْثِرُونَ الِاسْتِمَاعَ وَالْإِصْغَاءَ إِلَى أَكَاذِيبِ أَحْبَارِهِمْ، وَيُكْثِرُونَ أَكْلَ الْحَرَامِ مِنَ الرِّشْوَةِ وَالرِّبَا وَنَحْوِهِمَا. وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالُهُ فَلَا رَجَاءَ فِي صَلَاحِهِ وَلَا تَنْتَظِرْ مِنْهُ خَيْرًا وَلَا رُشْدًا.

وَيَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، هَؤُلَاءِ إِنْ تَحَاكَمُوا إِلَيْكَ فِي خُصُومَاتِهِمْ فَأَنْتَ مُخَيَّرٌ بَيْنَ أَنْ تَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَوْ تُعْرِضَ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْكَ طَلَبًا لِلْحَقِّ بَلْ مُوَافَقَةً لِأَهْوَائِهِمْ. وَإِنْ تَرَكْتَ الْحُكْمَ بَيْنَهُمْ فَلَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَافِظُكَ مِنَ النَّاسِ. أَمَّا إِنِ اخْتَرْتَ أَنْ تَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فِي قَضَايَاهُمْ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ، حَتَّى وَإِنْ كَانُوا ظَلَمَةً وَأَعْدَاءً؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْعَادِلِينَ فِي أَحْكَامِهِمْ.

وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ؟

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)

اللَّهُ تَعَالَى يُنْكِرُ عَلَى الْيَهُودِ مُخَالَفَتَهُمْ لِشَرِيعَتِهِ. فَمَثَلًا هُمْ يَجِدُونَ فِي تَوْرَاتِهِمْ أَنَّ الزَّانِيَ يُرْجَمُ، فَلِمَاذَا لَا يُطَبِّقُونَ ذَلِكَ؟ بَلْ يَحْتَكِمُونَ إِلَى النَّبِيِّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي حَدِّ الزَّانِي، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: "ائْتُوا مُحَمَّدًا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوا، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِرَجْمِ الزَّانِي فَاحْذَرُوا". فَيَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، كَيْفَ يَحْكُمُكَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ الَّتِي يَزْعُمُونَ الْإِيمَانَ بِهَا، وَحُكْمُ اللَّهِ مَنْصُوصٌ فِيهَا، ثُمَّ يُعْرِضُونَ عَنْ حُكْمِكَ مَعَ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا جَاءَ فِي كِتَابِهِمْ؟ فَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ لَا بِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِهِمُ التَّوْرَاةِ، ذَلِكَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى الْكَلِيمِ.

وَاسْمَعْ كَيْفَ يُثْنِي اللَّهُ تَعَالَى عَلَى كِتَابِهِ التَّوْرَاةِ: التَّوْرَاةُ قَبْلَ أَنْ تُحَرِّفَهَا أَيْدِي الْيَهُودِ، أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى كِتَابَ هِدَايَةٍ وَنُورٍ: هُدًى بِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانِ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ الَّتِي تَهْدِي النَّاسَ إِلَى طَرِيقِ السَّعَادَةِ، وَنُورٌ بِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانِ الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْقَوِيمَةِ. وَهَذِهِ التَّوْرَاةُ كَانَ يَحْكُمُ بِهَا بَيْنَ الْيَهُودِ أَنْبِيَاؤُهُمُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا وُجُوهَهُمْ لِلَّهِ وَانْقَادُوا لِحُكْمِ اللَّهِ، فَمَا حَرَّفُوا التَّوْرَاةَ وَلَا بَدَّلُوهَا وَلَا خَرَجُوا عَنْ أَحْكَامِهَا. وَعَلَى هَذَا النَّهَجِ سَارَ عُلَمَاءُ وَفُقَهَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا يُرَبُّونَ النَّاسَ وَيَحْكُمُونَ بَيْنَهُمْ بِالتَّوْرَاةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ حَمَّلَهُمْ أَمَانَةَ حِفْظِ كِتَابِهِ وَتَنْفِيذِ أَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ، وَهُمْ شُهَدَاءُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ حَقٌّ.

فَيَا عُلَمَاءَ الْيَهُودِ، لَا تَخَافُوا مِنَ النَّاسِ فِي النُّطْقِ بِالْحَقِيقَةِ، وَلَا تَكْتُمُوا أَحْكَامَ اللَّهِ وَالشَّرِيعَةَ، كَأَحْكَامِ الْحُدُودِ وَنَعْتِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-، بَلِ اجْعَلُوا خَوْفَكُمْ مِنِّي وَحْدِي. وَلَا تَتْرُكُوا الْعَمَلَ بِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنَ الْوَحْيِ وَالْآيَاتِ مِنْ أَجْلِ حُطَامِ الدُّنْيَا الْقَلِيلِ الزَّائِلِ، مِنْ رِئَاسَةٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ. وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مُسْتَحِلًّا ذَلِكَ أَوْ مُفَضِّلًا عَلَيْهِ غَيْرَهُ أَوْ مُسَاوِيًا لَهُ مَعَهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ. قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: وَالْآيَةُ وَإِنْ كَانَ الظَّاهِرُ مِنْ سِيَاقِهَا أَنَّ الْخِطَابَ فِيهَا لِلْيَهُودِ، إِلَّا أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)

يُسْتَمِرُّ الْحَدِيثُ عَنِ التَّوْرَاةِ وَبَيَانِ بَعْضِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ هِدَايَاتٍ وَتَشْرِيعَاتٍ، فَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُتَعَمِّدًا بِغَيْرِ حَقٍّ قُتِلَ بِهَا، وَمَنْ قَلَعَ عَيْنًا مُتَعَمِّدًا قُلِعَتْ عَيْنُهُ، وَمَنْ جَدَعَ أَنْفًا مُتَعَمِّدًا جُدِعَ أَنْفُهُ، وَمَنْ قَطَعَ أُذُنًا مُتَعَمِّدًا قُطِعَتْ أُذُنُهُ، وَمَنْ قَلَعَ سِنًّا مُتَعَمِّدًا قُلِعَتْ سِنُّهُ، وَفِي الْجُرُوحِ كَتَبْنَا عَلَيْهِمُ الْقِصَاصَ. فَلِلْمَجْرُوحِ أَنْ يَقْتَصَّ بِالْمِثْلِ مِمَّنْ جَرَحَهُ ظُلْمًا، وَمَنْ تَطَوَّعَ بِحَقِّهِ بِالْعَفْوِ عَنِ الْجَانِي كَافَأَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَحْوِ ذُنُوبِهِ؛ لِأَنَّهُ عَفَا عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ. وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِ الْقِصَاصِ وَفِي غَيْرِهِ، فَهُوَ ظَالِمٌ مُتَجَاوِزٌ لِحُدُودِ اللَّهِ.

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦)

وَبَعْدَ أَنْ أَبَانَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْزِلَةَ التَّوْرَاةِ، اتَّبَعَ ذَلِكَ بِبَيَانِ مَنْزِلَةِ الْإِنْجِيلِ. فَقَدِ اتَّبَعْنَا عَلَى آثَارِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، نَاهِجًا نَهْجَهُمْ وَسَالِكًا مَسْلَكَهُمْ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَمُصَدِّقًا لِلتَّوْرَاةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْهُ وَمُطَبِّقًا لِأَحْكَامِهَا، وَأَعْطَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ الْمَوْصُوفَةَ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ: أَوَّلُهَا: أَنَّهُ هُدًى بِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانِ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ. وَثَانِيهَا: أَنَّهُ كِتَابُ نُورٍ بِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانِ الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْقَوِيمَةِ. وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ مُؤَيِّدٌ لِمَا جَاءَتْ بِهِ التَّوْرَاةُ مِنْ أَحْكَامٍ

وَشَرَائِعَ. وَرَابِعُهَا: أَنَّهُ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ بِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَوَاعِظَ تُرَقِّقُ الْقُلُوبَ وَنَصَائِحَ تُصَفِّي النُّفُوسَ.

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَتْبَاعَ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- الَّذِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْإِنْجِيلُ، أَنْ يَحْكُمُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِمُقْتَضَى أَحْكَامِ الْإِنْجِيلِ بِدُونِ تَحْرِيفٍ أَوْ تَبْدِيلٍ، وَأَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَيْهِ وَيُؤْمِنُوا بِمَا فِيهِ، وَمِنْهُ بَشَارَةُ عِيسَى بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَالْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ. وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ الْمُتَمَرِّدُونَ عَلَى حُكْمِهِ وَشَرْعِهِ.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)

وَبَعْدَ الْحَدِيثِ عَنِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْقُرْآنَ بِالصِّدْقِ الَّذِي لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، مُصَدِّقًا وَمُؤَيِّدًا لِلْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ، وَمُؤْتَمَنًا عَلَيْهَا، وَنَاسِخًا لِبَعْضِ أَحْكَامِهَا. جَمَعَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ مَحَاسِنَ مَا قَبْلَهُ، وَزَادَهُ مِنَ الْكَمَالَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ. فَإِذَا تَحَاكَمَ إِلَيْكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَوْ غَيْرُهُمْ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ، وَلَا تُوَافِقْ فِي حُكْمِكَ شَهَوَاتِ النَّاسِ وَرَغَبَاتِهِمْ وَأَهْوَاءَهُمْ فَتَنْحَرِفَ عَمَّا جَاءَكَ مِنَّا مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى. لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ وَضَعْنَا شَرِيعَةً وَمِنْهَاجًا مُخْتَصَّةً بِهَا فِي الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ، وَأَمَّا الْمُعْتَقَدُ فَوَاحِدٌ. أُمَّةُ مُوسَى وَمَنْ بَعْدَهُ كَانَتْ شَرِيعَتُهَا أَحْكَامَ التَّوْرَاةِ، وَأُمَّةُ عِيسَى كَانَتْ شَرِيعَتُهَا أَحْكَامَ الْإِنْجِيلِ، وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فَشَرِيعَتُهَا أَحْكَامَ الْقُرْآنِ. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَجَعَلَ النَّاسَ جَمِيعًا عَلَى شَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الشَّرَائِعَ مُخْتَلِفَةً لِيَخْتَبِرَ عِبَادَهُ وَيَتَبَيَّنَ الْمُطِيعَ وَالْعَاصِيَ. فَيَا أَيُّهَا الْعِبَادُ، سَارِعُوا إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ؛ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ جَمِيعًا سَيَكُونُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، فَيُخْبِرُكُمْ عِنْدَ الْحِسَابِ بِحَقِيقَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ، وَسَيُجَازِيكُمْ عَلَى مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩)

رُوِيَ أَنَّ كَعْبَ بْنَ أَسِيدٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ صُورِيَا وَشَاسَ بْنَ قَيْسٍ، وَهُمْ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، اجْتَمَعُوا وَقَالُوا: اذْهَبُوا بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ لَعَلَّنَا نَفْتِنُهُ عَنْ دِينِهِ. فَجَاؤُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّا أَحْبَارُ الْيَهُودِ وَأَشْرَافُهُمْ وَسَادَتُهُمْ، وَإِنَّا إِنِ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعَنَا الْيَهُودُ وَلَمْ يُخَالِفُونَا، وَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا خُصُومَةً فَنُحَاكِمُهُمْ إِلَيْكَ، فَإِنْ قَضَيْتَ لَنَا عَلَيْهِمْ آمَنَّا بِكَ. فَأَبَى النَّبِيُّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ذَلِكَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. فَيَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، احْكُمْ بَيْنَ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ بِالْقُرْآنِ، وَلَا تُوَافِقْ رَغَبَاتِهِمْ وَأَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يُصْرِفُوكَ عَنْ بَعْضِ شَرِيعَةِ اللَّهِ، فَهُمْ لَنْ يَأْلُوا جُهْدًا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ. فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الِاحْتِكَامِ إِلَى الْقُرْآنِ أَوِ الْقَبُولِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، فَلَا تَتَأَثَّرْ وَلَا تُبَالِ بِهِمْ، وَاعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بِبَعْضِ إِجْرَامِهِمْ، فَاثِقٌ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْخَاسِرُونَ بِهَذَا الْإِعْرَاضِ، لَا أَنْتَ وَلَا شَرِيعَةُ اللَّهِ، وَلَا الصَّفُّ الْمُسْلِمُ الصَّادِقُ سَيَتَضَرَّرُ بِإِعْرَاضِهِمْ. ثُمَّ اسْمَعْ إِلَى تَذْيِيلِ الْآيَةِ الَّذِي يَكْشِفُ طَبِيعَةَ الْبَشَرِ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾. فَأَكْثَرُ النَّاسِ مَتَمَرِّدُونَ عَلَى الْحَقِّ، مُعْرِضُونَ عَنِ الْوَحْيِ، خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ. لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُمْ هَكَذَا، وَلَا حِيلَةَ لَكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ.

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ وَمَنْ يُوَافِقُهُمْ مَاذَا يُرِيدُونَ؟ أَيُرِيدُونَ الْإِعْرَاضَ عَنِ الِاحْتِكَامِ إِلَى الْقُرْآنِ؟ أَيُرِيدُونَ حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ عِبَادِ الْأَوْثَانِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ تَبَعًا لِأَهْوَائِهِمُ الْقَائِمَةِ عَلَى الظُّلْمِ وَالْجَهَالَةِ وَالْعُدْوَانِ؟ فَالْجَاهِلِيَّةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ فَتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ، بَلْ هِيَ مُمَارَسَةٌ ظَالِمَةٌ وَخُرُوجٌ عَنْ عُبُودِيَّةِ اللَّهِ وَالِاحْتِكَامِ لِشَرْعِ اللَّهِ، إِلَى عُبُودِيَّةِ الْبَشَرِ وَالِاحْتِكَامِ لِشَرْعِ الْبَشَرِ. وَهَلْ يُوجَدُ أَحْسَنُ وَأَعْدَلُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ بِالشَّرْعِ وَيَذْعَنُونَ لِلْحَقِّ؟ فَهُمْ يُدْرِكُونَ حُسْنَ أَحْكَامِ اللَّهِ وَصَلَاحَهَا.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْمُتَحَاكِمِينَ لِشَرْعِكَ وَالْمُتَمَسِّكِينَ بِأَحْكَامِكَ.

آمِين.

الدرس الثامن

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)

وبعد الحديث عن مَسَالِك أعداء الدين وبيان كيدهم ومكرهم، وجه الله تعالى نداءً إلى المؤمنين وحذرهم فيه من موالاتهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ}، أي لا تجعلوا من اليهود والنصارى حلفاءً ونصراءَ وأصدقاءَ توالُونهم؛ لأن اليهود يوالون ويُناصِرون بعضُهم بعضًا، والنصارى يوالون ويناصرون بعضُهم بعضًا، وكِلا الفريقين يدٌ واحدةٌ عليكم، يتربصون بكم الدوائر، وكلُّهم يضمرون لكم البغضاءَ والشر، وهم وإن اختلفوا فيما بينهم لكنهم متفقون إذا كانت المعركة ضد المسلمين. إنَّ سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيءٌ، واتخاذهم أولياءَ شيءٌ آخَرُ، ولكن هذين الأمرين يختلطان على بعض المغفَّلين الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤيةُ الكاملةُ لحقيقة هذا الدين. لذلك: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}، أي فَإِنَّهُ أَصْبَحَ في عِدادِهم، وحُكْمُهُ حُكْمُهُمْ، {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أنفسَهم بموالاة أعدائهم.

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)

يا أيها الرسول الكريم، فَتَرَى أُولَئِكَ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ شَكٌّ ونِفَاقٌ يُبَادِرُونَ في التَّوَدُّدِ وموالاة أعداء الإسلام، وحتى يُبَرِّرُوا قُبْحَ صُنْعِهِمْ يَقُولُونَ: اترُكُونَا وشَأْنَنَا، فَإِنَّا نَخَافُ أَنْ تَنْزِلَ بِنَا مَصِيبَةٌ مِنَ المَصَائِبِ الَّتِي يَدُورُ بِهَا الزَّمَانُ، كَأَنْ تَمَسَّنَا ضَائِقَةٌ مَالِيَّةٌ فَنَجِدَ مِنْهُمُ الدَّعْمَ والعَوْنَ، أَوْ يَنْتَصِرُوا في النِّهَايَةِ فَتَكُونَ لَنَا أَيْدٍ عِنْدَهُمْ تَنْفَعُنَا وتَقِينَا شَرَّهُمْ. فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا التَّبْرِيرَ البَارِدَ بِجَوَابٍ فِيهِ تَسْلِيَةٌ للمُسْلِمِينَ: لا تُبَالُوا بِمَوَاقِفِ المُنَافِقِينَ وَأَقْوَالِهِمْ، فَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى بِفَضْلِهِ أَنْ يَرْزُقَكُمُ النَّصْرَ عَلَى أَعْدَائِكُمْ بَعْدَ جِهَادٍ وقِتَالٍ، أَوْ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَتَظْهَرُوا عَلَى أَعْدَائِكُمْ بِدُونِ جِهَادٍ وَلَا قِتَالٍ، فَيَصِيرَ المُنَافِقُونَ المُوَالُونَ لأَعْدَائِكُمْ نَادِمِينَ عَلَى مَا

كَانَ مِنْهُمْ مِنْ خِيَانَةٍ وموالاة لأعداء الله. وهكذا صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، فَأَكْرَمَ عَبْدَهُ بِفَتْحِ مَكَّةَ، كَمَا أَنْزَلَ الهَزِيمَةَ باليَهُودِ، وَوَرَّثَ المُؤْمِنِينَ أَرْضَهُمْ وديَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، مُكَافِئًا إيَّاهُمْ وَمُذِلًّا المُنَافِقِينَ، إذْ جَعَلَهُمْ حَقِيرِينَ مُهَانِينَ بَعْدَ أَنْ خَانُوا وتَذَبْذَبُوا.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)

أَمَامَ تَلَوُّنِ المُنَافِقِينَ في مَوَاقِفِهِمْ، يَقُولُ المُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ حَالِ المُنَافِقِينَ: أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ مُؤَكِّدِينَ قَسَمَهُمْ بِأَقْوَى المُؤَكِّدَاتِ بِأَنَّهُمْ مَعَكُمْ أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ في الإيمَانِ والنُّصْرَةِ والمُوَالَاةِ؟ وَلَكِنْ كَذِبُهُمُ انْكَشَفَ وَأَعْمَالُهُمْ بَطَلَتْ، فَصَارُوا خَاسِرِينَ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)

وبعد أن نهى الله تعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، حَذَّرَهُمْ أَنَّ مُوَالَاةَ أَعْدَاءِ اللَّهِ قَدْ تَجُرُّ وَتُؤَدِّي إلى الرِّدَّةِ عن الدِّينِ. خِطَابٌ للمُؤْمِنِينَ أَتَى على وَجْهِ التَّحْذِيرِ والتَّهْدِيدِ. والمَعْنَى: يَا مَعْشَرَ المُؤْمِنِينَ، مَنْ يَرْجِعْ مِنْكُمْ عَنِ الإسْلَامِ وَيُبَدِّلْهُ بِدِينٍ آخَرَ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ مَكَانَهُمْ بِأُنَاسٍ آخَرِينَ يَحْمِلُونَ الرَّايَةَ، صِفَاتُهُمْ: اللَّهُ يُحِبُّهُمْ وَهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ، رُحَمَاءُ مُتَوَاضِعُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَشِدَّاءُ مُتَعَزِّزُونَ عَلَى الكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِقْرَارِ مَنْهَجِ اللَّهِ في الأَرْضِ، وَأَنَّهُمْ في جِهَادٍ ضِدَّ البَاطِلِ وَجَهْرٍ بِكَلِمَةِ الحَقِّ، وَحِرْصِهِمْ عَلَى مَا يُرْضِي اللَّهَ لَا يَخَافُونَ عَتَابَ مُعَاتِبٍ وَلَا اعْتِرَاضَ مُعْتَرِضٍ. هَذِهِ هِيَ الصِّفَاتُ الحَمِيدَةُ والمَنَاقِبُ الجَلِيلَةُ، هِيَ صِفَاتُ المُؤْمِنِينَ الكُمَّلِ، وَهَبَهَا اللَّهُ لَهُمْ فَضْلًا مِنْهُ إِحْسَانًا، يُؤْتِيهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَاسِعُ الفَضْلِ والجُودِ، عَلِيمٌ بِأَحْوَالِ خَلْقِهِ، فَيَعْلَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ فَضْلَهُ فَيَمْنَحُهُ، وَيَعْلَمُ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ فَضْلَهُ فَيَحْرِمُهُ. نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِفَضْلِهِ الوَاسِعِ وَجُودِهِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مَانِعٌ.

قَالَ العُلَمَاءُ: هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ احْتَوَتْ عَلَى أَمْرٍ غَيْبِيٍّ أَخْبَرَ عَنْهُ القُرْآنُ قَبْلَ وُقُوعِهِ، وَقَدْ وَقَعَ المُخْبَرُ بِهِ عَلَى وَفْقِهِ، فَكَانَ آيَةً وإعْجَازًا. فَفِي الوَقْتِ الَّذِي كَانَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ في دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، تَأْتِي هَذِهِ الآيَةُ لِتُشِيرَ أَنَّ أَقْوَامًا سَيَتْرُكُونَ

الإِسْلَامَ ارْتِدَادًا، وَقَدْ كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَقَدِ ارْتَدَّ عَنِ الإِسْلَامِ بَعْضُ القَبَائِلِ كَقَبِيلَةِ بَنِي حَنِيفَةَ وَبَنِي أَسَدٍ وَبَنِي سُلَيْمٍ وَبَنِي بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَغَطَفَانَ وَكِنْدَةَ وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ تَصَدَّى لَهُمْ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، فَكَسَّرُوا شَوْكَةَ الرِّدَّةِ وَأَعَادُوا لِكَلِمَةِ الإِسْلَامِ هَيْبَتَهَا وَقُوَّتَهَا.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)

بَعْدَ نَهْيِ المُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالَاةِ الكَافِرِينَ، أَتَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُبَيِّنَ مَنْ هُمُ الجَدِيرُونَ بِالمُوَالَاةِ: فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لَيْسُوا بِأَوْلِيَاءِكُمْ، بَلْ إِنَّ وَلِيَّكُمْ وَنَاصِرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَهُوَ المَرْجُوُّ وَحْدَهُ فِي الشَّدَائِدِ، وَوَلِيُّكُمْ كَذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي أَخْرَجَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الكُفْرِ إِلَى الإِيمَانِ، إِضَافَةً إِلَى المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ عَلَى وَجْهِهَا وَيُعْطُونَ الزَّكَاةَ لِمُسْتَحِقِّيهَا وَهُمْ خَاضِعُونَ ذَلِيلُونَ لِلَّهِ، وَلَيْسُوا مُرَائِينَ أَوْ مُنَانِينَ.

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ بِحُسْنِ العَاقِبَةِ لِكُلِّ مَنْ يَتَّخِذِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالمُؤْمِنِينَ أَوْلِيَاءَهُ وَنُصَرَاءَهُ، فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ حِزْبِ اللَّهِ، وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ المُنْتَصِرُونَ وَالفَائِزُونَ وَالقَاهِرُونَ لِأَعْدَائِهِمْ. وَهَذَا النَّصْرُ وَالغَلَبَةُ لَيْسَ لِأَنَّ المُسْلِمِينَ يَغْلِبُونَ بِذَوَاتِهِمْ، بَلْ لِأَنَّهُمْ حِزْبُ اللَّهِ.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)

لَقَدْ سَلَكَ القُرْآنُ طُرُقًا مُنَوَّعَةً لِنَهْيِ المُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالَاةِ المُخَالِفِينَ، وَمِنْهَا إِثَارَةُ الحَمِيَّةِ لِدِينِهِمْ وَلِعِبَادَتِهِمْ وَلِصَلَاتِهِمْ. يَا مَعْشَرَ المُؤْمِنِينَ، أَعْدَاءَ الدِّينِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالمُشْرِكِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا مِنَ الإِسْلَامِ مَادَّةً لِسُخْرِيَتِهِمْ وَتَهَكُّمِهِمْ وَمَوْضِعًا لِلَعْبِهِمْ وَلَهْوِهِمْ، لَا تَتَّخِذُوهُمْ حُلَفَاءَ وَأَصْفِيَاءَ لَكُمْ، فَهُمْ أَعْدَاءٌ لَكُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ الوِلَايَةَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَمِنْهَا تَرْكُ مُوَالَاةِ أَعْدَاءِ الدِّينِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقًّا مُنْقَادِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ صِدْقًا. فَالإِسْلَامُ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالسَّمَاحَةِ وَبِحُسْنِ المُعَامَلَةِ، وَلَكِنْ يَنْهَاهُمْ عَنِ الوِلَايَةِ لِهَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّ السَّمَاحَةَ وَحُسْنَ المُعَامَلَةِ مَسْأَلَةُ خُلُقٍ وَسُلُوكٍ، أَمَّا الوِلَايَةُ فَمَسْأَلَةُ عَقِيدَةٍ وَتَنْظِيمٍ.

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى جَانِبًا مِنَ اسْتِهْزَاءِ هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ بِالإِسْلَامِ وَشَعَائِرِهِ:

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨)

وَمِنَ اسْتِهْزَاءِ الكُفَّارِ بِكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا أَذَّنْتُمْ لِلصَّلَاةِ سَخِرُوا مِنَ الأَذَانِ وَاسْتَهْزَأُوا بِالصَّلَاةِ. رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ النَّصَارَى كَانَ بِمَدِينَةٍ إِذَا سَمِعَ المُؤَذِّنَ يُنَادِي: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: حَرَقَ الكَاذِبُ. وَالْيَهُودُ لَمَّا سَمِعُوا الأَذَانَ قَالُوا: مِنْ أَيْنَ لَهُ الصِّيَاحُ كَصِيَاحِ العِيرِ؟ فَمَا أَقْبَحَ صَوْتَهُ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ. وَكَانُوا إِذَا رَأَوُا المُسْلِمِينَ رُكَّعًا سُجَّدًا اسْتَهْزَأُوا بِهِمْ وَضَحِكُوا مِنْهُمْ. فَهَؤُلَاءِ القَوْمُ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، شَأْنُهُمْ شَأْنُ البَهَائِمِ، بَلِ البَهَائِمُ أَفْضَلُ مِنْهُمْ؛ فَهُمْ قَوْمٌ عَرَفُوا الحَقَّ وَلَكِنْ أَحْقَادُهُمْ أَعْمَتْهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الحَقِّ، فَسُخْرِيَّتُهُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ إِلَّا تَعْبِيرًا عَنْ عَجْزِهِمْ وَفَشَلِهِمْ فِي مُوَاجَهَةِ الحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الإِسْلَامُ.

قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)

يَا أَيُّهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، مَا الَّذِي تَنْقِمُونَ مِنْ هَذَا الدِّينِ؟ وَمَا العَيْبُ الَّذِي تَجِدُونَهُ فِيهِ يُوجِبُ اسْتِهْزَاءَكُمْ وَسُخْرِيَّتَكُمْ؟ مَا لَكُمْ مِنْ مَطْعَنٍ أَوْ عَيْبٍ عَلَيْنَا إِلَّا أَنَّنَا آمَنَّا بِاللَّهِ رَبِّنَا، وَآمَنَّا بِالقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَآمَنَّا بِالكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ قَبْلَنَا، وَآمَنَّا أَنَّ أَكْثَرَكُمْ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ. فَهَلِ اعْتِنَاقُ هَذِهِ العَقِيدَةِ الصَّافِيَةِ يُعَدُّ عَيْبًا؟ إِذْ كَانَ هَٰذَا عَيْبًا فِي أَعْيُنِكُمْ، فَالأَوْلَى بِكُمُ السُّكُوتُ؛ لِأَنَّ مَا تَرَوْنَهُ عَيْبًا نَحْنُ نَرَاهُ مَحْمَدَةً وَشَرَفًا وَعِزًّا: "وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَفَخْرًا ** وَكِدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا ** دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي ** وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا" صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَالحَقِيقَةُ أَنَّ أَعْدَاءَ الإِسْلَامِ إِنَّمَا يُعَادُونَ المُسْلِمِينَ لِأَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، وَهَذِهِ الحَرْبُ الشَّعْوَاءُ ضِدَّهُمْ لَمْ تَتَوَقَّفْ يَوْمًا مُنْذُ أَنْ قَامَتْ لِلْمُسْلِمِينَ فِي المَدِينَةِ دَوْلَةٌ، وَتَأَسَّسَ لَدَيْهِمْ نِظَامٌ، وَتَمَيَّزَتْ لَهُمْ هَوِيَّةٌ، وَأَصْبَحَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وُجُودٌ.

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)

يَا أَهْلَ الكِتَابِ، يَا مَنْ تَسْخَرُونَ مِنْ دِينِنَا وَتُعِيبُونَ عَلَيْنَا إِيمَانَنَا الَّذِي هُوَ تَوْحِيدٌ وَإِفْرَادٌ لِلَّهِ بِالعِبَادَةِ، هَلْ تَعْرِفُونَ مَا الَّذِي يُعَابُ حَقِيقَةً؟ هَلْ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ شَرٌّ مِنْ هَٰذَا الَّذِي تُعِيبُونَهُ عَلَيْنَا، وَأَشَدُّ عِقَابًا عِنْدَ اللَّهِ؟ إِنَّهُمْ أَسْلَافُكُمُ الَّذِينَ طَرَدَهُمُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ غَضَبَهُ، وَمَسَخَ بَعْضَهُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، وَجَعَلَ مِنْهُمْ عِبَادًا

لِلطَّاغُوتِ. هَؤُلَاءِ المَلْعُونُونَ المَوْصُوفُونَ بِتِلْكَ القَبَائِحِ وَالفَضَائِحِ شَرٌّ مَكَانًا فِي الآخِرَةِ، وَأَكْثَرُ ضَلَالًا عَنِ الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ.

كَانَ يَأْتِي خِتَامُ الآيَاتِ بِتَوْجِيهِ المُؤْمِنِينَ إِلَى طَرِيقِ الهِدَايَةِ وَتَحْذِيرِهِمْ مِنْ مُوَالَاةِ أَعْدَاءِ الدِّينِ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ إِلَّا السُّوءَ وَالشَّرَّ لِلإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ، وَاللَّهُ هُوَ الوَلِيُّ وَالنَّصِيرُ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَ هُدَاهُ.

الدرس التاسع.

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:

وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١)

يَمْضِي السِّيَاقُ القُرْآنِيُّ فِي التَّنْفِيرِ مِنْ مُوَالَاةِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِعَرْضِ صِفَاتِهِمْ وَسِمَاتِهِمْ، فَيَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ احْذَرُوا مِنْ مَكْرِ الْيَهُودِ، فَفَرِيقًا مِنْهُمْ يُمَارِسُ النِّفَاقَ: إِذَا أَتَوْكُمْ قَالُوا لَكُمْ كَذِبًا آمَنَّا، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْكُفْرَ يَغْمُرُهُمْ؛ قَدْ دَخَلُوا عَلَيْكُمْ بِكُفْرِهِمْ وَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِكُمْ بِكُفْرِهِمْ، لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ مِنْ وَاقِعِهِمْ وَلَمْ يَنْتَفِعُوا مِنْ كَلَامِكُمْ وَلَمْ يَتَأَثَّرُوا مِنْ مَوَاعِظِكُمْ، فَلَا نِيَّةَ وَلَا رَغْبَةَ لَهُمْ فِي الْهِدَايَةِ بِسَبَبِ قَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ، إِنَّهُمْ يَعِيشُونَ فِي حَالَةِ نِفَاقٍ دَائِمٍ، إِلَّا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ فِي جَعْبَتِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْخَدَاعِ، وَسَيُعَاقِبُهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا النِّفَاقِ.

لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)

لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ رَذَائِلِ الْيَهُودِ: أَنَّكَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَسَابَقُونَ إِلَى فِعْلِ الشَّرِّ وَيُبَادِرُونَ إِلَى ارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى حُقُوقِ الْبَشَرِ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، قَوِيُّهُمْ وَضَعِيفُهُمْ سَوَاءٌ، لَبِئْسَ هَذِهِ الْقَبَائِحُ وَالْمُنْكَرَاتُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا. فَمَاذَا كَانَ مَوْقِفُ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ أَمَامَ تَيَّارِ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ الَّذِي انْسَاقَ فِيهِ الْمُجْتَمَعُ الْيَهُودِيُّ؟

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) [المائدة: ٦٣].

أَمَامَ مُسَارَعَةِ الْيَهُودِ إِلَى الْمَعَاصِي، هَلْ لَا يَزْجُرُهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ وَفُقَهَاؤُهُمْ عَنْ قَوْلِ الْبَاطِلِ وَأَكْلِ الْحَرَامِ؟ فَهَاتَيْنِ الرَّذِيلَتَيْنِ هُمَا جَمَاعُ الرَّذَائِلِ. لَقَدْ سَاءَ صُنْعُ عُلَمَائِهِمْ وَفُقَهَائِهِمْ حِينَ أَهْمَلُوا نُصْحَ أَتْبَاعِهِمْ حَوْلَ قَوْلِ الْإِثْمِ وَأَكْلِ السُّحْتِ. وَالْغَرِيبُ أَنَّهُمْ

قَدِيمًا وَحَدِيثًا تَمَيَّزُوا بِبُرُودٍ غَرِيبٍ أَمَامَ الْمَعَاصِي، حَتَّى أَمْسَكَتِ الْحَضَارَةُ الْغَرْبِيَّةُ الْيَوْمَ مَشْحُونَةً بِصُنُوفِ الدَّنَسِ وَالرِّجْسِ مَعَ صَمْتٍ مُطْبَقٍ مِنَ الْكَهَنَةِ الْمُتَفَرِّجِينَ. إِنَّ سِمَةَ الْمُجْتَمَعِ الْفَاضِلِ الْحَيِّ أَنْ يَسُودَهُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ يَتَقَدَّمَ الْعُلَمَاءُ وَالدُّعَاةُ لِمُوَاجَهَةِ الْفَسَادِ. أَمَّا الْمُجْتَمَعُ الَّذِي يَسْكُتُ فِيهِ الْعُلَمَاءُ وَالدُّعَاةُ عَنِ الْفَسَادِ فَهُوَ مُجْتَمَعٌ يَتَجَهُ نَحْوَ الِانْتِحَارِ وَيَقْتَرِبُ مِنْ حَافَّةِ الِانْهِيَارِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: "مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَشَدُّ تَوْبِيخًا عَلَى الْعُلَمَاءِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَا أَخْوَفَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا".

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)

فَسَادُ مُعْتَقَدٍ وَخُبْثُ طَوِيَّةٍ وَسُوءُ أَدَبٍ مَعَ اللهِ يُمَارِسُهُ الْيَهُودُ؛ فَحِينَ أَصَابَهُمْ جَدْبٌ وَضِيقٌ فِي الرِّزْقِ، فَتَجَرَّأُوا وَقَالُوا: يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ (أَيْ: يَدُ اللهِ مَقْبُوضَةٌ عَنْ بَذْلِ الْخَيْرِ، أَمْسَكَ اللهُ عَنَّا خَيْرَهُ وَحَبَسَ عَنَّا عَطَاءَهُ). أَرَادُوا أَنْ يَصِفُوا اللهَ تَعَالَى بِالْبُخْلِ، فَاخْتَارُوا لَفْظًا أَشَدَّ وَقَاحَةً وَكُفْرًا، فَقَالُوا: يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ! أَلَا غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَقُبِضَتْ عَنْ فِعْلِ الْخَيْرِ وَالْعَطَاءِ وَحُبِسَتْ عَنِ الْبَذْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَطُرِدُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى مَا تَفَوَّهُوا بِهِ مِنْ كُفْرٍ وَافْتِرَاءٍ عَلَى اللهِ. لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ بِالْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ، فَهُوَ وَاسِعُ الْفَضْلِ جَزِيلُ الْعَطَاءِ سَابِغُ الْإِنْعَامِ، وَلَكِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ عُمْيٌ لَا يُرُونَ كَرَمَ اللهِ تَعَالَى وَلَا فَضْلَهُ وَلَا جُودَهُ وَلَا إِحْسَانَهُ. قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ". فَاللهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَةٍ وَيَمْنَعُ عَمَّنْ يَشَاءُ لِحِكْمَةٍ، فَتَضْيِيقُ الرِّزْقِ لَيْسَ لِقُصُورٍ فِي عَطَائِهِ، بَلْ لِأَنَّ إِنْفَاقَهُ تَابِعٌ لِمَشِيئَتِهِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى حِكْمَتِهِ. وَاعْلَمْ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ بِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ يَزْدَادُونَ كُفْرًا فَوْقَ كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانًا فَوْقَ طُغْيَانِهِمْ، عَلَى خِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَعْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ يَزْدَادُونَ إِيمَانًا وَهُدًى. وَفِي هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِيَعْلَمَ أَنَّ كُفْرَ الْيَهُودِ لَيْسَ لِضَعْفِ حُجَّةٍ بَلْ لِخُبْثِ طَبِيعَتِهِمْ، فَلَا يَحْزَنْ لِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ، فَهُمْ أَهْلُ عُتُوٍّ وَتَمَرُّدٍ عَلَى رَبِّهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَذْعَنُونَ لِلْحَقِّ وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ. وَخَيْبَتُهُمْ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى عِنَادِهِمْ بِاللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ، بَلْ حَتَّى

عَلَاقَتَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ تَسُودُهَا الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، فَأَحْقَادُهُمْ فَرَّقَتْهُمْ إِلَى طَوَائِفَ مُتَعَدِّدَةٍ، فَكَلِمَتُهُمْ مُمَزَّقَةٌ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى، وَكُلُّ فِرْقَةٍ تُلْصِقُ الْعُيُوبَ بِالْأُخْرَى. وَعَلَى هَذِهِ الْحَالِ سَيَظَلُّونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَكُلَّمَا خَطَّطَ الْيَهُودُ وَأَعَدُّوا الْعُدَّةَ لِإِشْعَالِ حَرْبٍ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَبْطَلَهَا اللهُ تَعَالَى بِقُدْرَتِهِ، فَانْحَلَّ عَزْمُهُمْ. وَهُمْ يُسَابِقُونَ لِلْكَيْدِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيَسْعَوْنَ لِإِثَارَةِ الْفِتَنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي نَشْرِ الْمَعَاصِي وَالْبَاطِلِ بَيْنَ النَّاسِ. وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالُهُمْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّهُمْ، لِأَنَّهُ يَبْغَضُ كُلَّ مُفْسِدٍ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ، وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَى فَسَادِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥)

بَعْدَ أَنْ حَكَى اللهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ بَعْضَ قَبَائِحِ أَهْلِ الْكِتَابِ عُمُومًا وَالْيَهُودِ خُصُوصًا، عَقَّبَ ذَلِكَ بِفَتْحِ بَابِ الْخَيْرِ لَهُمْ: فَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى آمَنُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ حَقَّ الْإِيمَانِ وَاتَّقَوْا مَحَارِمَ اللهِ فَاجْتَنَبُوهَا، لَمَحَوْنَا عَنْهُمُ الذُّنُوبَ الَّتِي اقْتَرَفُوهَا وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، يَتَنَعَّمُونَ فِيهَا بِأَنْوَاعِ النَّعِيمِ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)

وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اسْتَقَامُوا عَلَى أَمْرِ اللهِ وَعَمِلُوا بِمَا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَبِمَا فِيهِمَا مِنْ بَشَارَاتٍ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَآمَنُوا بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ، لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَوَسَّعَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ وَأَغْدَقَ عَلَيْهِمُ الْخَيْرَاتِ مِنْ كُلِّ الْأَطْرَافِ وَالْجِهَاتِ: مِنْ إِنْزَالِ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ وَإِخْرَاجِ الثَّمَرَاتِ مِنَ الْأَرْضِ. فَالْخَيْرَاتُ تَنْمُو مَعَ الْإِيمَانِ، بَيْنَمَا الْكُفْرُ يَجْلِبُ الشَّقَاءَ وَالنَّكَدَ وَيُؤَدِّي إِلَى ضَرِيبَةٍ مُؤْلِمَةٍ لَا حُدُودَ لَهَا. وَالْعَاقِلُ لَا يَنْخَدِعُ بِالْمَظَاهِرِ الْكَاذِبَةِ فِي الْأُمَمِ وَالدُّوَلِ الْكَافِرَةِ، فَذَلِكَ رَخَاءٌ مُؤَقَّتٌ رَخَاءٌ مَآلُهُ الْفَنَاءُ، حَتَّى تَفْعَلَ السُّنَنُ الثَّابِتَةُ فِعْلَهَا الثَّابِتَ. ثُمَّ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَيْسُوا سَوَاءً فِي الضَّلَالِ، فَمِنْهُمْ جَمَاعَةٌ عَادِلَةٌ عَاقِلَةٌ وَهُمْ قِلَّةٌ، عَرَفَتِ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَصَدَّقَتْ، وَسَمِعَتِ الْقُرْآنَ فَآمَنَتْ، مِثْلُ النَّجَاشِيِّ الْحَبَشِيِّ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ الْيَهُودِيِّ. إِلَّا أَنَّ

كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَشْرَارٌ ظَالِمُونَ، سَاءَتْ أَعْمَالُهُمْ مِنْ خَبِيثِ الْاعْتِقَادِ وَقَبِيحِ الْأَقْوَالِ وَسُوءِ الْأَفْعَالِ. لَكِنْ مَهْمَا بَلَغَ مَكْرُ الْمَاكِرِينَ أَوْ حِقْدُ الْحَاقِدِينَ، فَإِنَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَلَّا يَتَوَقَّفَ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَمْضِيَ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ إِلَى النَّاسِ.

يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)

بَدَأَتِ الْآيَةُ بِنِدَاءِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِوَصْفِ الرِّسَالَةِ: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)، وَهَذَا نِدَاءُ تَشْرِيفٍ وَتَعْظِيمٍ، حَيْثُ نَادَاهُ اللهُ تَعَالَى بِأَشْرَفِ الْأَوْصَافِ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، أَخْبِرِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ بِكُلِّ وَضُوحٍ وَصَرَاحَةٍ، دُونَ أَنْ تَخْشَى فِي سَبِيلِ الْحَقِّ أَحَدًا. فَمَهَمَّتُكَ الْعُظْمَى هِيَ إِيصَالُ الدِّينِ لِلنَّاسِ بِمَا فِيهِ مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهٍ وَآدَابٍ وَأَحْكَامٍ وَهَدَايَاتٍ وَأَخْبَارٍ، وَلَا تَكْتُمْ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ، فَإِنْ كَتَمْتَ مِنْهُ شَيْئًا فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَةَ اللهِ؛ لِأَنَّ تَرْكَ بَعْضِ الرِّسَالَةِ يُعْتَبَرُ تَرْكًا لِكُلِّ الرِّسَالَةِ. وَقَدْ قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَقَدْ شَهِدَتْ لَهُ الْأُمَّةُ بِذَلِكَ فِي أَعْظَمِ الْمَحَافِلِ؛ فِي خُطْبَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، حَيْثُ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟" قَالُوا: "نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ". فَرَفَعَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُصْبُعَهُ السَّبَّابَةَ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ اشْهَدِ، اللَّهُمَّ اشْهَدِ، اللَّهُمَّ اشْهَدِ". وَقَدْ وَعَدَ اللهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْحِفْظِ وَالْحِمَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ أَذَى الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ، فَلَنْ يَسْتَطِيعُوا الْوُصُولَ إِلَيْهِ بِسُوءٍ، وَمَنْ كَانَ اللهُ لَهُ عَاصِمًا وَحَافِظًا فَمَاذَا يَمْلِكُ لَهُ الْعِبَادُ الْمَهَازِيلُ؟ فَيَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، مَا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَاللهُ هُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَمَنْ قُضِيَ لَهُ بِالْكُفْرِ لَا يَهْتَدِي قَطُّ إِلَى الْإِيمَانِ.

قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨)

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، وَاجِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِحَقِيقَةِ حَالِهِمْ وَقُلْ لَهُمْ: لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ أَوْ مَوْقِفٍ يُقَامُ لَهُ وَزْنٌ، وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الِاخْتِبَاءُ وَرَاءَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ حَتَّى تَعْمَلُوا بِمَا جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَتُقِيمُوا أَحْكَامَهُمَا، وَحَتَّى تُؤْمِنُوا بِالْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ هِدَايَةً لَكُمْ. وَلَكِنَّ الْوَاقِعَ يَا رَسُولَ اللهِ يَكْشِفُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ

الضَّالِّينَ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ يَزْدَادُونَ كُفْرًا فَوْقَ كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانًا فَوْقَ طُغْيَانِهِمْ؛ لِأَنَّ نُفُوسَهُمْ لَا تَمِيلُ إِلَى الْحَقِّ، وَإِنَّمَا تَنْحَدِرُ نَحْوَ الْبَاطِلِ. ثُمَّ خُتِمَتِ الْآيَةُ لِتُوَاسِيَ قَلْبَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لِتَقُولَ لَهُ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، إِذَا كَانَ شَأْنُ كَثِيرِينَ هُوَ اخْتِيَارُ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَتَأَسَّفْ عَلَى حَالِهِمْ، فَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ مَصِيرَهُمُ الْبَائِسَ؛ لِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى، فَدَعْهُمْ وَمَا اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّ فِي الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ بَرَكَةً وَغِنًى وَكِفَايَةً. إِنَّ دِينَ اللهِ لَيْسَ بِكَثْرَةِ الْأَتْبَاعِ وَلَا بِرَفْعِ الرَّايَاتِ وَلَا بِتَرْدِيدِ الشِّعَارَاتِ؛ إِنَّ دِينَ اللهِ إِنَّمَا يَتَمَثَّلُ فِي نَبْضٍ يُحْيِي الضَّمِيرَ، وَفِي عَقِيدَةٍ تَعْمُرُ الْقُلُوبَ، وَفِي شَعَائِرَ تُزَكِّي النُّفُوسَ، وَفِي أَخْلَاقٍ تُهَذِّبُ السُّلُوكَ، وَفِي مِيثَاقٍ مُقَدَّسٍ يُنَظِّمُ الْحَيَاةَ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ تَكَثُّرٌ لَا وَزْنَ لَهُ. فَمَا قِيمَةُ الْجُمُوعِ إِنْ لَمْ تَسْجُدْ جِبَاهُهَا لِلهِ؟ وَمَا نَفْعُ الرَّايَاتِ إِنْ لَمْ تَرْفْرِفْ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ؟ وَمَا أَثَرُ الشِّعَارَاتِ إِنْ لَمْ تُصَدِّقَهَا الْأَفْعَالُ؟ اللَّهُمَّ أَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ، وَثَبِّتْنَا عَلَيْهِ حَتَّى نَلْقَاكَ، آمِينَ.

الدرس العاشر:

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)

لَقَدْ أَنْصَفَ الْقُرْآنُ أَهْلَ الْكِتَابِ وَأَكَّدَ بِأَنَّ بَابَ اللَّهِ تَعَالَى مَفْتُوحٌ لِكُلِّ مَنْ حَقَّقَ الْإِيمَانَ، سَوَاءٌ كَانَ مِنْ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ: كَالْيَهُودِ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانُوا عَلَىٰ شَرِيعَتِهِ قَبْلَ التَّحْرِيفِ، وَالنَّصَارَى الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الْمَسِيحَ وَكَانُوا عَلَىٰ شَرِيعَتِهِ قَبْلَ التَّحْرِيفِ، وَالصَّابِئِينَ الْحُنَفَاءِ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَىٰ دِينِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ كَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ قَبْلَ التَّحْرِيفِ. فَمَنْ آمَنَ مِنْ هٰؤُلَاءِ بِاللَّهِ حَقًّا، وَآمَنَ بِالْجَزَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صِدْقًا، وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ خَالِصَةً وَفْقَ الشَّرِيعَةِ الَّتِي وَجَبَ عَلَيْهِمُ اتِّبَاعُهَا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عَلَىٰ ذٰلِكَ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالٍ فِي الْآخِرَةِ،

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَىٰ مَا مَضَىٰ مِنْ أَعْمَارِهِمْ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّهُمْ أَفْنَوْهَا فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَيَجِبُ فَهْمُ هٰذِهِ الْآيَةِ فِي إِطَارِهَا الصَّحِيحِ، إِذْ لَا يُمْكِنُ الِاسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَىٰ صِحَّةِ الْأَدْيَانِ الْمُحَرَّفَةِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، كَمَا يُرَوِّجُ لِذٰلِكَ بَعْضُ الْجُهَلَاءِ وَالْمُخَرِّفِينَ مِنْ أَهْلِ التَّضْلِيلِ وَالتَّمْيِيعِ، فَالْإِسْلَامُ قَدْ نَسَخَ الشَّرَائِعَ السَّابِقَةَ، فَلَا تَشْمَلُ الْآيَةُ أَهْلَ الْكِتَابِ بَعْدَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، أَوِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوهَا، إِذْ لَا نَجَاةَ لَهُمْ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْإِسْلَامِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٨٥).

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠)

تَسْتَأْنِفُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الْحَدِيثَ عَنْ قَبَائِحِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ خِلَالِ عَرْضِ طَرَفٍ مِنْ تَارِيخِهِمْ، يَتَجَلَّى فِيهِ كَيْفَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَىٰ شَيْءٍ. فَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى الْعُهُودَ الْمُؤَكَّدَةَ وَالْمُغَلَّظَةَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَرُسُلِهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلْأَوَامِرِ وَالتَّكَالِيفِ، وَلٰكِنَّهُمْ نَقَضُوا تِلْكَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ. وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الْعَدِيدَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ لِيُبَيِّنُوا لَهُمْ طَرِيقَ الْحَقِّ وَيُرْشِدُوهُمْ، إِلَّا أَنَّ اسْتِجَابَتَهُمْ كَانَتْ تَتَّسِمُ بِالْعِنَادِ وَالتَّمَرُّدِ، فَكُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِأَمْرٍ يُخَالِفُ شَهَوَاتِهِمْ وَأَهْوَاءَهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَ فَرِيقًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَيَقْتُلُونَ فَرِيقًا آخَرَ، فِي سِلْسِلَةٍ مِنَ الْجَرَائِمِ الَّتِي سَجَّلَهَا التَّارِيخُ عَنِ الْيَهُودِ الْأَسْلَافِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. إِنَّهُ تَارِيخٌ قَدِيمٌ حَافِلٌ بِالتَّكْذِيبِ وَالْإِعْرَاضِ وَالْقَتْلِ وَالِاعْتِدَاءِ وَتَحْكِيمِ الشَّهَوَاتِ وَالْأَهْوَاءِ، فَلَيْسَ مُسْتَغْرَبًا إِذًا أَنْ يَسْتَمِرَّ خَلْفُهُمْ فِي نَفْسِ الْمَسْلَكِ مُعَارِضِينَ لِلْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ هُوَ شَنْشَنَةٌ مِنْ أَسْلَافِهِمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ.

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)

تَصِفُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ صَنَعُوا تِلْكَ الْآثَامَ كُلَّهَا مِنْ نَقْضِهِمْ لِلْمِيثَاقِ وَتَكْذِيبِهِمْ لِلرُّسُلِ وَقَتْلِهِمْ لِلْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزَجِرُوا وَلَمْ يَنْدَمُوا، بَلْ بَلَغَ بِهِمُ الْغُرُورُ وَالسَّفَهُ حِينَ ظَنُّوا أَنَّ جَرَائِمَهُمْ شَيْءٌ هَيِّنٌ وَأَنَّهُ لَنْ يَكُونَ لَهَا أَثَرٌ سَيِّئٌ فِي حَيَاتِهِمْ، وَأَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُمْ بِسَبَبِهَا ضَرَرٌ وَلَا فِتْنَةٌ، فَأَمِنُوا الْعِقَابَ وَتَمَادَوْا فِي فُنُونِ الْفَسَادِ. فَتَرَتَّبَ عَلَىٰ ذٰلِكَ مَا لَمْ يَظُنُّوهُ، فَأَصَابَهُمُ الْعَمَىٰ عَنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ، وَأَصَابَهُمُ الصَّمَمُ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ. فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ أَعْدَاءَهُمْ فَأَذَاقُوهُمُ الذُّلَّ

وَالْهَوَانَ، فَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ تَائِبِينَ، فَقَبِلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ تَوْبَتَهُمْ وَأَعَادَ إِلَيْهِمْ عِزَّهُمْ، وَلَٰكِنَّهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ مَرَّةً أُخْرَىٰ وَعَادُوا إِلَىٰ فَسَادِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، فَأُصِيبَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِطَمْسِ الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ مَجَدَّدًا، وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢)

وَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَتِ السُّورَةُ أَنْمَاطًا مِنْ قَبَائِحِ الْيَهُودِ وَضَلَالَاتِهِمُ انْتَقَلَتِ الْآيَاتُ إِلَىٰ بَيَانِ قَبَائِحِ النَّصَارَىٰ وَضَلَالَاتِهِمْ. لَقَدْ كَفَرَ أُولَٰئِكَ النَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا كَذِبًا وَزُورًا بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَهَٰذَا لَازِمُ قَوْلِ فِرْقَةٍ مِنْ فِرَقِ النَّصَارَىٰ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ حَلَّ وَاتَّحَدَ فِي ذَاتِ عِيسَىٰ، تَعَالَى اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْ ذَٰلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.
وَالْمَسِيحُ عِيسَىٰ بَرِيءٌ مِنْ هَٰذِهِ الدَّعْوَةِ، وَالْمَشْهَدُ كَانَ وَاضِحًا لَا لَبْسَ فِيهِ حِينَ خَرَجَ الْمَسِيحُ عَلَىٰ قَوْمِهِ وَقَالَ مُحَذِّرًا وَمُنْذِرًا لَهُمْ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَهُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ وَخَالِقِي وَخَالِقُكُمْ. إِنَّهُ مَنْ يَعْبُدْ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ، وَمُسْتَقَرُّهُ النِّيرَانُ؛ لِأَنَّهُ تَلَبَّسَ بِالشِّرْكِ، وَالشِّرْكُ ظُلْمٌ عَظِيمٌ، وَالظَّالِمُونَ لَيْسَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْوَانٌ وَلَا أَنْصَارٌ يُنْقِذُونَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ عَذَابٍ وَشَقَاءٍ مُقِيمٍ.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)

النَّصَارَىٰ فِرَقٌ وَطَوَائِفُ يَفْتَرِقُونَ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَقْوَالِ وَيَجْتَمِعُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، فَهُمْ شِيَعٌ شَتَّىٰ وَفِرَقٌ مُتَنَابِذَةٌ، كُلُّ فِرْقَةٍ تُكَفِّرُ الْأُخْرَىٰ وَتُعَرِّضُهَا فِي مُعْتَقَدَاتِهَا. وَمَعَ إِحْدَى الْفِرَقِ الضَّالَّةِ مِنَ النَّصَارَى الَّتِي مَضَتْ فِي طَرِيقِ الضَّيَاعِ حَتَّىٰ غَرِقَتْ فِي مَقُولَةِ التَّثْلِيثِ الشَّنِيعَةِ، حِينَ زَعَمَتْ أَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، فَالْإِلٰهِيَّةُ عِنْدَهُمْ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِيسَىٰ وَرُوحِ الْقُدُسِ! فَيَا لِجُرْأَتِهِمْ عَلَى الْحَقِّ وَيَا لِافْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ! فَاللَّهُ تَعَالَىٰ وَاحِدٌ أَحَدٌ، لَا يَقْبَلُ الْقِسْمَةَ وَلَا يَلِيقُ بِهِ التَّعَدُّدُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَلَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ، مَوْصُوفٌ بِالْوَحْدَانِيَّةِ مُتَعَالٍ عَنِ الْمِثْلِ وَالنَّظِيرِ.
وَهَٰؤُلَاءِ الضَّلَّالُ إِنْ لَمْ يَكُفُّوا عَنْ هَٰذِهِ الْمَقَالَةِ الْكُفْرِيَّةِ الشَّنِيعَةِ لَيَنَالَهُمْ عَذَابٌ مُوجِعٌ مُؤْلِمٌ، جَزَاءً عَمَّا قَالُوهُ زُورًا وَبُهْتَانًا.

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤)

بَعْدَ التَّرْهِيبِ أَتَى التَّرْغِيبُ، بَعْدَ التَّخْوِيفِ جَاءَ نِدَاءُ الرَّحْمَةِ وَفَتْحُ بَابِ التَّوْبَةِ لِلنَّصَارَىٰ. أَفَلَا يَرْجِعُ هَٰؤُلَاءِ عَنْ عَقَائِدِهِمُ الْبَاطِلَةِ تَائِبِينَ إِلَى اللَّهِ، طَالِبِينَ مِنْهُ الْمَغْفِرَةَ عَلَىٰ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ؟ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ غَفُورٌ لِمَنْ تَابَ، رَحِيمٌ لِمَنْ أَنَابَ. وَهَٰذَا مِنْ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ، فَمَعَ هَٰذَا الِافْتِرَاءِ الْعَظِيمِ وَهَٰذَا الْإِفْكِ الْمُبِينِ يَظَلُّ بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحًا، فَكُلُّ مَنْ أَنَابَ إِلَيْهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥)

يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي الْآيَةِ بِوُضُوحٍ كَامِلٍ حَقِيقَةَ الْمَسِيحِ وَحَقِيقَةَ أُمِّهِ الْعَذْرَاءِ، حَتَّىٰ يُزِيلَ عَنْ سَاحَتِهِمَا مَا افْتَرَاهُ الْمُفْتَرُونَ، وَيُعِيدَ الْعُقُولَ إِلَى الْمَنْطِقِ الْوَاقِعِيِّ الْقَوِيمِ، لَعَلَّهُ يَرُدُّ شَتَاتَ النَّصَارَىٰ إِلَى الْإِدْرَاكِ السَّلِيمِ. فَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ مَا هُوَ إِلَّا رَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ، أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِالرِّسَالَةِ كَمَا أَكْرَمَ كَثِيرًا مِمَّنْ سَبَقَهُ. وَأُمُّهُ السَّيِّدَةُ مَرْيَمُ امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ صِدِّيقَةٌ، طُبِعَتْ عَلَى الصِّدْقِ فِي قَوْلِهَا وَالتَّصْدِيقِ لِرَبِّهَا. الْمَسِيحُ وَأُمُّهُ مَعَ كُلِّ مَكَانَتِهِمَا السَّامِيَةِ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ لِحَاجَتِهِمَا إِلَى التَّغْذِيَةِ مِثْلَ سَائِرِ الْبَشَرِ! فَكَيْفَ يَكُونَانِ إِلَٰهَيْنِ مَعَ حَاجَتِهِمَا لِلطَّعَامِ؟ الْإِلَٰهُ الْحَقِيقِيُّ حَيٌّ بِذَاتِهِ، قَائِمٌ بِذَاتِهِ، بَاقٍ بِذَاتِهِ، غَنِيٌّ عَنْ غَيْرِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ، وَلَا يَدْخُلُ إِلَىٰ ذَاتِهِ أَوْ يَخْرُجُ مِنْهَا شَيْءٌ حَادِثٌ كَالطَّعَامِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يُعْبَدَ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَا يُدِيمُ حَيَاتَهُ؟ وَكَيْفَ يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ إِلَٰهٌ؟! وَفِيهِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَىٰ أَنَّ مَنْ يَأْكُلُ الطَّعَامَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ إِخْرَاجِهِ، وَمَنْ يَكُنْ هَٰذَا حَالُهُ فَكَيْفَ يُعْبَدُ وَكَيْفَ يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ إِلَٰهٌ؟! فَتَأَمَّلْ أَيُّهَا السَّامِعُ كَيْفَ يُوضِحُ اللَّهُ لَهُمُ الْأَدِلَّةَ الظَّاهِرَةَ وَالْحُجَجَ الْبَاهِرَةَ عَلَىٰ بُطْلَانِ مَقَالَاتِهِمُ الْفَاسِدَةِ، ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ وَيَضِلُّونَ الطَّرِيقَ رَغْمَ وُضُوحِ السَّبِيلِ وَسُطُوعِ الدَّلِيلِ.

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦)

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، قُلْ لِهَٰؤُلَاءِ الضَّالِّينَ مِنَ النَّصَارَىٰ: هَلْ تَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ كَالْمَسِيحِ وَأُمِّهِ وَرُوحِ الْقُدُسِ، مَعَ أَنَّهَا مَعْبُودَاتٌ لَا تَمْلِكُ أَنْ تَضُرَّكُمْ بِشَيْءٍ كَالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْفَعَكُمْ بِشَيْءٍ كَالرِّزْقِ وَالصِّحَّةِ؟ لِأَنَّهَا مَعْبُودَاتٌ عَاجِزَةٌ لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى التَّأْثِيرِ فِي حَيَاتِكُمْ، لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، لَا تَسْمَعُ وَلَا تَعْلَمُ. وَتَتْرُكُونَ عِبَادَةَ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ؟ اللَّهُ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِكُمْ، الْعَلِيمُ بِأَفْعَالِكُمْ، اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ

الَّذِي يَسْمَعُ دُعَاءَ عِبَادِهِ وَاسْتِغَاثَاتِهِمْ، وَيَعْلَمُ ضَعْفَهُمْ وَحَاجَاتِهِمْ. أَمَّا مَا سِوَاهُ فَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَعْلَمُ وَلَا يَمْلِكُ الِاسْتِجَابَةَ لِدُعَاءٍ أَوْ نِدَاءٍ.

قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)

تُحَذِّرُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي أَخْطَرِ أَسْبَابِ الِانْحِرَافِ الْعَقْدِيِّ أَلَا وَهُوَ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ. فَيَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، قُلْ لِلنَّصَارَىٰ: لَا تَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي دِينِكُمْ، وَلَا تُبَالِغُوا فِي تَعْظِيمِ مَنْ أُمِرْتُمْ بِتَوْقِيرِهِمْ مِثْلَ الْأَنْبِيَاءِ، فَتَصِلُوا بِهِمْ إِلَىٰ مَرْحَلَةِ الْأُلُوهِيَّةِ كَمَا فَعَلْتُمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، بِسَبَبِ اقْتِدَائِكُمْ بِأَسْلَافِكُمْ وَأَئِمَّتِكُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ الَّذِينَ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ وَضَلُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ. إِنَّ هَٰذَا النِّدَاءَ الْجَادَّ هُوَ دَعْوَةُ الْإِنْقَاذِ الْأَخِيرَةِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ، لِيَخْرُجُوا بِهَا مِنْ خَضْمِ الِانْحِرَافَاتِ وَالشِّرْكِيَّاتِ، وَيَعُودُوا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيَتَجَنَّبُوا السَّيْرَ عَلَىٰ خُطَىٰ أَسْلَافِهِمُ الضَّالِّينَ الَّذِينَ غَرِقُوا فِي مُسْتَنْقَعِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَأَبْعَدُوا الْكَثِيرَ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ.

الدرس الحادي عشر

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨)

وَبَعْدَ أَنِ اسْتَعْرَضَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ طَبِيعَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَبَائِحَهُمْ وَرَذَائِلَهُمُ الَّتِي تَفَاقَمَتْ عَبْرَ تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ، تُذَكِّرُنَا السُّورَةُ بِالتَّقْرِيرِ النِّهَائِيِّ لِلْحُكْمِ عَلَيْهِمُ الَّذِي وَرَدَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَهُوَ لَعْنُ كُفَّارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. نَعَمْ، الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ أُرْسِلُوا لِهَدَايَتِهِمْ وَإِنْقَاذِهِمْ مِنَ الضَّلَالِ، انْتَهَىٰ بِهِمُ الْمَطَافُ إِلَىٰ لَعْنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَاسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَىٰ دُعَاءَ أَنْبِيَائِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ غَضَبَهُ لِيُرَافِقَهُمْ إِلَىٰ الْأَبَدِ، فَطُرِدُوا مِنْ رَحْمَتِهِ وَهَدَايَتِهِ بِسَبَبِ الْعِصْيَانِ وَالْعُدْوَانِ. عِصْيَانُهُمْ لِأَوَامِرِ الْخَالِقِ وَاعْتِدَاؤُهُمْ عَلَىٰ حُقُوقِ الْعِبَادِ،

كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)

الْعِصْيَانُ وَالْعُدْوَانُ هُمَا الْمَعْصِيَتَانِ اللَّتَانِ جَلَبَتَا اللَّعْنَةَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُمَا مَرَضَانِ قَدْ يَتَسَلَّلَانِ إِلَىٰ أَيِّ مُجْتَمَعٍ. فَالأَرْضُ لَا تَخْلُو مِنَ الشُّرُورِ، وَالْمُجْتَمَعُ لَا يَخْلُو مِنَ الشُّذُوذِ، لَكِنَّ الْمُجْتَمَعَ الصَّالِحَ مُجْتَمَعٌ حَيٌّ نَابِضٌ لَا يَسْمَحُ لِلشَّرِّ أَنْ يَتَمَدَّدَ وَلَا لِلْمُنْكَرِ أَنْ يَسُودَ. إِلَّا أَنَّ الْوَضْعَ فِي مُجْتَمَعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ تَفَاقَمَ فِيهِ حَجْمُ الْمُنْكَرِ، فَلَمْ يَبْقَ عَمَلًا فَرْدِيًّا بَلْ أَصْبَحَ طَابَعَ الْجَمَاعَةِ كُلِّهَا. وَلَمْ يَكُنْ هَٰذَا لِيَحْدُثَ إِلَّا بِسَبَبِ صَمْتِ الرَّبَّانِيِّينَ وَالأَحْبَارِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَرِضَاهُمُ الضِّمْنِيِّ بِالْجَرِيمَةِ، وَتَرْكِهِمُ النَّصِيحَةَ، فَأَصْبَحَ الْعُصَاةُ يُجَاهِرُونَ بِالْمَعَاصِي أَمَامَ الْمَلَا، فَلَا أَحَدَ يَقِفُ فِي وُجُوهِهِمْ لِيَقُولَ لَهُمْ: كَفَىٰ! لَسَاءَ وَقُبْحَ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ.

تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠)

يَمْضِي السِّيَاقُ فِي الْحَدِيثِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَكْشِفَ حَالَهُمْ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حَيْثُ تَجِدُهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الْكُفَرَةَ ضِدَّ الأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ. يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ: تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُعَاصِرِينَ لَكَ يُحِبُّونَ الْمُشْرِكِينَ وَيَمِيلُونَ إِلَيْهِمْ وَيَتَّخِذُونَهُمْ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا، بَيْنَمَا يُعَادُونَكَ وَيُعَادُونَ الْمُسْلِمِينَ وَيُؤَلِّبُونَ عَلَيْكُمُ الْمُشْرِكِينَ. وَقَدْ تَجَلَّىٰ هَٰذَا كُلُّهُ بِوَضُوحٍ فِي غَزْوَةِ الأَحْزَابِ، وَكَانُوا دَائِمًا فِي خَنْدَقِ الْعَدَاوَةِ لِلْإِسْلَامِ. كُلُّ ذَٰلِكَ بِدَافِعِ الْحَسَدِ لِمَا آتَاكَ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنْ فَضْلِهِ، وَبِسَبَبِ كَرَاهِيَتِهِمْ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ. لَسَاءَ مَا يُقَدِّمُونَ عَلَيْهِ مِنْ مُوَالَاتِهِمُ الْكَافِرِينَ، فَاسْتَحَقُّوا بِذَٰلِكَ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَحَقُّوا بِذَٰلِكَ دُخُولَ النَّارِ وَالْخُلُودَ فِي الْعَذَابِ. فَمَا أَتْعَسَهُ مِنْ مَصِيرٍ، وَمَا أَشْنَعَهَا مِنْ خَاتِمَةٍ.

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)

تُكْشِفُ لَنَا الآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَنِ الدَّافِعِ الَّذِي جَعَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُوَالُونَ الْمُشْرِكِينَ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ عَدَمُ الإِيمَانِ. وَلَوْ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَقًّا، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا، وَبِالْقُرْآنِ وَحْيًا، لَمَا اتَّخَذُوا الْكُفَّارَ أَعْوَانًا وَأَوْلِيَاءَ وَحُلَفَاءَ ضِدَّ الأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ. لَكِنْ بِمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ، فَإِنَّ قُلُوبَهُمْ تَمِيلُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ؛ إِذْ يَتَوَافَقُونَ مَعَهُمْ فِي الْهَوَىٰ وَالْوِجْهَةِ وَالْهَدَفِ. فَلَا جَرَمَ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا يَتَوَلَّوْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَمَعَ ذَٰلِكَ، يَظَلُّ الْإِسْلَامُ دِينًا رَبَّانِيًّا يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَىٰ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْعِشْرَةِ وَالسُّلُوكِ، وَبِحِمَايَةِ أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، وَعَدَمِ إِكْرَاهِهِمْ عَلَىٰ شَيْءٍ فِي أَمْرِ الدِّينِ، مَعَ دَعْوَتِهِمْ بِالْحِكْمَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَمُجَادَلَتِهِمْ بِالْحُسْنَىٰ، وَالْوَفَاءِ لَهُمْ مَا وَفُوا بِعَهْدِهِمْ. هَٰذَا هُوَ الْإِسْلَامُ فِي وُضُوحِهِ وَنَصَاعَتِهِ، وَفِي بِرِّهِ وَسَمَاحَتِهِ.

وَبَعْدَ هَٰذِهِ الْجَوْلَةِ الطَّوِيلَةِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، وَمَعَ الْيَهُودِ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ، وَالَّتِي تَنَاوَلَتْ تَارِيخَهُمْ وَمَوَاقِفَهُمْ وَطَبَائِعَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ وَمَسَالِكَهُمْ وَمُزَاعِمَهُمْ، وَعَلَاقَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، وَعَنِ الْمَنْهَاجِ الْقَوِيمِ فِي دَعْوَتِهِمْ، بَعْدَ كُلِّ هَٰذَا الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ مَعَهُمْ، تَصِلُ السُّورَةُ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ أَقْرَبِهِمْ مَوَدَّةً لَهُمْ:

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)

رُوِيَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ أَنَّ النَّجَاشِيَّ بَعَثَ وَفْدًا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَلْتَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا جَلَسُوا بَيْنَ يَدَيْهِ وَاسْتَمَعُوا مِنْهُ أَسْلَمُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِيهِمْ هَٰذِهِ الآيَةَ. وَعِنْدَمَا رَجَعُوا لِلنَّجَاشِيِّ وَأَخْبَرُوهُ بِمَا سَمِعُوا وَرَأَوْا، أَسْلَمَ النَّجَاشِيُّ مَعَهُمْ مُسْتَجِيبًا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ: لَتَجِدَنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ بُغْضًا وَعَدَاوَةً لَكَ وَلِأَتْبَاعِكَ الْمُؤْمِنِينَ فَرِيقَيْنِ مِنَ النَّاسِ، هُمَا الْيَهُودُ وَالْمُشْرِكُونَ؛ لِأَنَّ عَدَاوَتَهُمْ مُنْشَؤُهَا الْحَسَدُ وَالْغُرُورُ، وَهَٰذِهِ الرَّذَائِلُ مَتَىٰ تَمَكَّنَتْ فِي النَّفْسِ حَالَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْهِدَايَةِ. وَلَقَدْ حَفِظَ التَّارِيخُ لَنَا مَوْقِفَهُمُ النَّكِدَ، حَيْثُ كَانَ مُشْرِكُ مَكَّةَ وَيَهُودُ الْمَدِينَةِ أَشَدَّ النَّاسِ بَأْسًا فِي عَدَاوَةِ الْإِسْلَامِ، عَلَىٰ حِينٍ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُؤَمِّلُونَ الْخَيْرَ فِي نَصَارَى الْحَبَشَةِ.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ: وَلَا تَجِدَنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ مَوَدَّةً وَمَحَبَّةً لَكَ وَلِأَتْبَاعِكَ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ إِنَّهُمْ نَصَارَىٰ. وَالسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ مِنْهُمْ عُلَمَاءَ يُرَغِّبُونَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَعُبَّادًا تَفَرَّغُوا لِلْعِبَادَةِ وَانْصَرَفُوا عَنْ مَلَذَّاتِ الدُّنْيَا، وَمِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ مُتَوَاضِعُونَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. نَعَمْ، هُنَاكَ فَرِيقٌ مِنَ النَّصَارَىٰ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ دِينُهُ مِنَ انْحِرَافٍ، وَلَيْسَ فِي قَلْبِهِ كِبْرٌ يَمْنَعُهُ مِنَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ إِنْ ظَهَرَ لَهُ. وَلِذَٰلِكَ فَإِنَّ السِّيَاقَ الْقُرْآنِيَّ لَا يُعَمِّمُ الْأَمْرَ عَلَىٰ كُلِّ النَّصَارَىٰ، كَلَّا، وَإِنَّمَا يُعْنِي فَرِيقًا مُحَدَّدًا كَانَ لَهُ مَوْقِفٌ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)

هَـٰذَا الْفَرِيقُ مِنَ النَّصَارَىٰ لَيْسُوا مِثْلَ الْبَقِيَّةِ، إِنَّهُمْ فَرِيقٌ خَاصٌّ، كَالنَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ. قُلُوبُهُمْ لَيِّنَةٌ لِأَنَّهُمْ تُرِبُّوا عَلَىٰ مَوَاعِظِ الْمَسِيحِ. كَانُوا بِالْأَمْسِ إِذَا سَمِعُوا مَوَاعِظَ الْمَسِيحِ تَأَثَّرُوا، فَاهْتَزَّتْ مَشَاعِرُهُمْ وَلَانَتْ أَفْئِدَتُهُمْ وَسَالَتْ دُمُوعُهُمْ. وَهَا هُمْ الْيَوْمَ لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، شَعَرُوا بِنَفْسِ الْهِيبَةِ وَالْعَظَمَةِ الَّتِي كَانَتْ تُحَرِّكُ مَشَاعِرَهُمْ عِنْدَمَا كَانُوا يَسْمَعُونَ مَوَاعِظَ الْمَسِيحِ، فَوَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَاقْشَعَرَّتْ جُلُودُهُمْ وَفَاضَتْ بِالدَّمْعِ عُيُونُهُمْ، تَعْبِيرًا عَنِ التَّأَثُّرِ الْعَنِيفِ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعُوهُ. فَالرَّبُّ وَاحِدٌ، وَالْمَنْهَجُ وَاحِدٌ، وَالْمَوْعِظَةُ وَاحِدَةٌ، وَالرِّسَالَةُ وَاحِدَةٌ؛ لِأَنَّ الْمِشْكَاةَ وَاحِدَةٌ. وَالَّذِينَ يَبْحَثُونَ عَنِ الْحَقِّ أُقْسِمُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ بِأَنَّهُمْ يُمَيِّزُونَهُ وَيَعْرِفُونَهُ، حَتَّىٰ وَإِنْ تَمَّ تَشْوِيهُهُ بِالشُّبُهَاتِ وَإِلْصَاقُ الْأَبَاطِيلِ بِهِ وَالْأَكَاذِيبِ، مُحَاوَلَةً لِإِخْفَاءِ الْحَقِّ أَوْ تَشْوِيهِهِ أَوْ طَمْسِهِ. فَلَا يَجِدُ أَتْبَاعُ الْمَسِيحِ وَسِيلَةً لِلتَّعْبِيرِ إِلَّا الدَّمْعَ الْغَزِيرَ. إِنَّهَا حَالَةٌ مَعْرُوفَةٌ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، حِينَ يَبْلُغُ بِهَا التَّأَثُّرُ دَرَجَةً أَعْلَىٰ مِنْ أَنْ يُفِيَ بِهَا الْكَلَامُ، فَيَخْرَسُ اللِّسَانُ وَتَنْطِقُ الْعَيْنُ، فَيَفِيضُ بِالدَّمْعِ لِيُؤَدِّيَ مَا لَا يُؤَدِّيهِ الْقَوْلُ الْفَصِيحُ، بِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّ الَّذِي سَمِعُوهُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَطَالَمَا بَحَثُوا عَنْهُ طَوَالَ حَيَاتِهِمْ. لَقَدْ كَانَ تَفَاعُلُهُمْ مَعَ الْقُرْآنِ تَفَاعُلًا عَمِيقًا؛ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا أَنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ هُوَ الْمَوْعِظَةُ الْأَخِيرَةُ وَالرِّسَالَةُ الْخَاتِمَةُ.

إِنَّ هَـٰذَا الْفَرِيقَ مِنَ النَّصَارَىٰ لَا يَكْتَفُونَ بِلُغَةِ الدُّمُوعِ، بَلْ نَرَاهُمْ يَتَقَدَّمُونَ خُطْوَةً إِلَى الْأَمَامِ لِيَتَّخِذُوا مَوْقِفًا إِيجَابِيًّا مِنَ الْحَقِّ، وَهُوَ مَوْقِفُ الْقَبُولِ لِهَـٰذَا الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ بِهَـٰذَا الْحَقِّ وَالْإِعْلَانِ عَنْ هَـٰذَا الْحَقِّ، فِي لَهْجَةٍ قَوِيَّةٍ عَمِيقَةٍ يَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا آمَنَّا بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَاكْتُبْنَا مَعَ أُمَّتِهِ الَّذِينَ جَعَلْتَهُمْ شُهَدَاءَ لِهَـٰذَا الْحَقِّ وَحُجَّةً عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤)

بَعْدَ سَمَاعِ هَـٰؤُلَاءِ النَّصَارَىٰ لِكَلَامِ اللَّهِ، نَجِدُ إِصْرَارَهُمْ عَلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَيَتَسَاءَلُونَ بِتَعَجُّبٍ: وَأَيُّ مَانِعٍ يَمْنَعُنَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَنَحْنُ نَرْجُو بَعْدَ إِيمَانِنَا أَنْ يُكْرِمَنَا اللَّهُ تَعَالَىٰ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ، مَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ؟

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ، إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ النَّصَارَىٰ مَا كَفَرُوا بِالْمَسِيحِ عِنْدَمَا آمَنُوا بِالرَّسُولِ الْجَدِيدِ، بَلْ هُمْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ حُبًّا لِلْمَسِيحِ، وَحُبُّهُمْ لِلْمَسِيحِ هُوَ الَّذِي دَفَعَهُمْ لِاتِّبَاعِ الْحَقِّ عِنْدَمَا ظَهَرَ لَهُمْ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالرَّسُولِ الْجَدِيدِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرَادُوا أَنْ يُحَرِّرُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ ذُلِّ الْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللَّهِ، بَعْدَ أَنْ بَحَثُوا عَنِ الْحَقِّ فَوَجَدُوهُ. ذَٰلِكَ الْحَقُّ الَّذِي وَعَظَ بِهِ الْمَسِيحُ قَوْمَهُ يَوْمًا، حِينَ صَاحَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: "اعْرِفُوا الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ" كَمَا يَجِدُونَهُ هُمْ فِي إِنْجِيلِ يُوحَنَّا. فَهَـٰذَا الْإِيمَانُ الْجَدِيدُ لَمْ يَكُنِ انْفِصَالًا عَنِ الْمَسِيحِ، بَلْ كَانَ اتِّبَاعًا لِلْمَسِيحِ وَامْتِدَادًا لِمَحَبَّتِهِمْ لَهُ وَوَفَاءً لِدَعْوَتِهِ إِلَى الْحَقِّ.

فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)

لَقَدْ رَأَى اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي قُلُوبِ هَـٰؤُلَاءِ النَّصَارَىٰ صِدْقًا، وَفِي أَلْسِنَتِهِمْ إِخْلَاصًا، وَفِي عَزِيمَتِهِمْ ثَبَاتًا، حِينَ اخْتَارُوا الْإِسْلَامَ طَرِيقًا، وَأَيْقَنُوا أَنَّ أَدَاءَ الشَّهَادَةِ لِهَـٰذَا الدِّينِ هُوَ فَضْلٌ وَمِنَّةٌ مِنَ اللَّهِ، فَأَعْلَنُوا إِيمَانَهُمْ طَمَعًا فِي رِضْوَانٍ كَرِيمٍ وَرَجَاءً أَنْ يُجَمِّعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مَعَ الصَّالِحِينَ فِي دَارِ النَّعِيمِ. فَاسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ وَكَافَأَهُمْ بِمَا قَالُوا: جَنَّاتٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَبَسَاتِينِهَا، مَاكِثِينَ فِي تِلْكَ الْجَنَّاتِ أَبَدًا. وَسَمَّاهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مُحْسِنِينَ. وَالْإِحْسَانُ أَرْفَعُ دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ وَأَكْرَمُ أَوْصَافِ الْمُتَّقِينَ. فَهُمْ أَحْسَنُوا فِي الِاسْتِمَاعِ لِلْحَقِّ، وَأَحْسَنُوا فِي الِانْقِيَادِ لِلْحَقِّ، بِدُونِ تَرَدُّدٍ أَوْ شَرْطٍ، فَكَانَ لَهُمُ الْجَزَاءُ الْكَرِيمُ.

أَمَّا الَّذِينَ سَمِعُوا فَأَعْرَضُوا، وَعَرَفُوا فَجَحَدُوا، هَـٰؤُلَاءِ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَىٰ سُبْحَانَهُ مَصِيرَهُمُ السَّيِّئَ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَأَنْكَرُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ، فَأُولَـٰئِكَ لَا جَزَاءَ لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا سُكَّانَ نَارِ جَهَنَّمَ، الْمُلَازِمُونَ لَهَا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا.

اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عَلَى الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ، وَنَجِّنَا مِنْ عَذَابِ النِّيرَانِ.

الدرس الثاني عشر

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧)

تَقَدَّمَ الثَّنَاءُ عَلَى الْقَسِيسِينَ وَالرُّهْبَانِ فِي بَعْضِ الْجَوَانِبِ، إِلَّا أَنَّ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِمْ تَرْكَ بَعْضِ الطَّيِّبَاتِ كَالتَّزَوُّجِ وَأَكْلِ اللُّحُومِ، لِذَا نَبَّهَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ الثَّنَاءَ لَا يَشْمَلُ رَهْبَانِيَّتَهُمُ الْمُبْتَدَعَةَ. رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ أُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَمُّوا بِالْخِصَاءِ وَتَرْكِ اللَّحْمِ وَالنِّسَاءِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا الْمُسْتَلَذَّاتِ الْمُبَاحَةَ مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَنَاكِحِ وَتَقُولُوا: حَرَّمْنَاهَا عَلَى أَنْفُسِنَا مُبَالَغَةً فِي تَرْكِهَا تَزَهُّدًا أَوْ تَعَبُّدًا، وَلَا تَتَجَاوَزُوا الْحُدُودَ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ لَكُمْ عَنْ طَرِيقِ الْإِسْرَافِ أَوْ أَكْلِ حَرَامٍ أَوْ تَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَقَضِيَّةُ التَّشْرِيعِ هِيَ للهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، هُوَ الَّذِي يُحِلُّ وَيُحَرِّمُ، وَهُوَ الَّذِي يَنْهَى وَيَأْمُرُ. إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْغَضُ الْمُتَجَاوِزِينَ لِحُدُودِ اللهِ وَهُدْيِ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، كُلُوا مِنَ الرِّزْقِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ الَّذِي رَزَقَكُمُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهُ، وَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى بِأَنْ تَجْتَنِبُوا مَا حَرَّمَهُ اللهُ وَتَلْتَزِمُوا حُدُودَ اللهِ فِي مَأْكَلِكُمْ وَمَشْرَبِكُمْ وَمَلْبَسِكُمْ وَسَائِرِ شُؤُونِكُمْ مَا دُمْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِاللهِ. فَلَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ، بَلِ الْإِسْلَامُ دِينٌ يَحُثُّ الْمُسْلِمَ عَلَى الِاسْتِمْتَاعِ بِالْحَلَالِ الطَّيِّبِ لِيَكُونَ قَوِيًّا فِي عَقْلِهِ وَجَسَدِهِ وَرُوحِهِ، فَالْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ.
وَلِلْأَسَفِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ ظَهَرَتْ لَنَا طَائِفَةُ النَّبَاتِيِّينَ الَّذِينَ يَمْتَنِعُونَ عَنْ أَكْلِ الْمُشْتَقَّاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ، فَمَنْ تَرَكَ نَوْعًا مِنَ الطَّعَامِ لِأَنَّهُ لَا يَشْتَهِيهِ أَوْ تَعَافُهُ نَفْسُهُ أَوْ لِاعْتِبَارَاتٍ صِحِّيَّةٍ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ مَنِ اعْتَقَدَ تَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَقَدْ وَقَعَ فِي الْكُفْرِ؛ لِأَنَّهُ اتَّهَمَ التَّشْرِيعَ الْإِلَهِيَّ بِالظُّلْمِ وَالنَّقْصِ وَإِبَاحَةِ مَا يَضُرُّ بِالْإِنْسَانِ وَيُعَذِّبُ الْحَيَوَانَ، تَعَالَى اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَاحْمَدُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى نِعْمَةِ الْحَلَالِ وَالْزَمُوا شُكْرَ النِّعْمَةِ، فَهِيَ مِفْتَاحُ الْبَرَكَةِ وَالدَّوَامِ.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

آيَةٌ تُبَيِّنُ أَحْكَامَ الْيَمِينِ؛ لِأَنَّ تَحْرِيمَ الطَّيِّبَاتِ غَالِبًا يَقَعُ مَعَ الْقَسَمِ وَالْأَيْمَانِ بِقَصْدِ تَأْكِيدِ الْكَلَامِ. يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، لَقَدْ تَفَضَّلَ اللهُ عَلَيْكُمْ بِأَنْ رَفَعَ عَنْكُمُ الْعُقُوبَةَ وَالْكَفَّارَةَ فِي لَغْوِ الْيَمِينِ، وَهُوَ الْحَلِفُ بِدُونِ قَصْدٍ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يُؤَاخِذُكُمْ بِالْأَيْمَانِ الْمَقْصُودَةِ وَالْمُعَقَّدَةِ إِذَا حَنِثْتُمْ فِيهَا. فَإِذَا حَنِثَ أَحَدُكُمْ فِي يَمِينِهِ وَجَبَ عَلَيْهِ تَكْفِيرُهُ وَمَحْوُ إِثْمِهِ بِفِعْلِ أَحَدِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ عَلَى التَّخْيِيرِ: إِمَّا هَذَا أَوْ هَذَا أَوْ هَذَا، وَهِيَ: أَنْ يُطْعِمَ عَشَرَةَ مَسَاكِينَ طَعَامًا يَكُونُ مِنْ مُتَوَسِّطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهَالِيَكُمْ فِي الْجَوْدَةِ وَالْمِقْدَارِ، أَوْ أَنْ يَكْسُوَ عَشَرَةَ مَسَاكِينَ كِسَاءً مُنَاسِبًا سَاتِرًا لِلْبَدَنِ، الثَّالِثُ: أَنْ يُعْتِقَ عَبْدًا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ فَيَجْعَلَهُ حُرًّا. فَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَا تَقَدَّمَ فَعَلَيْهِ حِينَئِذٍ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ تَطْهِيرًا لِنَفْسِهِ وَمَحْوًا لِذَنْبِهِ. فَهَذَا الَّذِي شَرَعْنَاهُ لَكُمْ هُوَ كَفَّارَةٌ لِأَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَحَنِثْتُمْ فِيهَا. وَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، صُونُوا أَنْفُسَكُمْ عَنْ عَدَمِ الْوَفَاءِ بِالْقَسَمِ وَعَنِ الْإِكْثَارِ مِنْهُ لِغَيْرِ حَاجَةٍ. وَبِهَذَا التَّشْرِيعِ الْحَكِيمِ يُوَضِّحُ اللهُ تَعَالَى لَكُمْ أَحْكَامَ شَرِيعَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَمِنْهَا نِعْمَةُ الْإِرْشَادِ وَالتَّعْلِيمِ.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)

بَعْدَ أَنْ أَبَاحَ اللهُ تَعَالَى الطَّيِّبَاتِ، أَتَى الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ الْخَبَائِثِ وَالْمُحَرَّمَاتِ. يَقُولُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالُوا: تَعَالَ نُطْعِمْكَ وَنَسْقِكَ خَمْرًا، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الْخَمْرُ. قَالَ: فَأَتَيْتُهُمْ فِي بُسْتَانٍ، فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ مَعَهُمْ. قَالَ: فَذَكَرْتُ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرِينَ عِنْدَهُمْ فَقُلْتُ: الْمُهَاجِرُونَ خَيْرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَظْمًا فَضَرَبَنِي بِهِ فَجَرَحَ أَنْفِي، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا جَرَى، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. وَفِي سِيَاقِ قَضِيَّةِ التَّشْرِيعِ يُسَوِّغُ الْقُرْآنُ لِلْأُمَّةِ شَخْصِيَّتَهَا وَيُخَلِّصُهَا مِنْ جَوِّ الْجَاهِلِيَّةِ وَرَوَاسِبِهِ، لِيَأْتِيَ النَّصُّ الْقَاطِعُ الْأَخِيرُ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ مَقْرُونَيْنِ إِلَى تَحْرِيمِ الْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ، وَهُمَا مِنْ أَلْوَانِ الشِّرْكِ بِاللهِ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّمَا الشَّرَابُ الْمُسْكِرُ الَّذِي يَذْهَبُ الْعَقْلَ، وَالْقِمَارُ الَّذِي يُضِيعُ الْمَالَ، وَالْحِجَارَةُ الَّتِي

تُذْبَحُ عَلَيْهَا الْقَرَابِينُ لِلْأَصْنَامِ، وَالسِّهَامُ الَّتِي يُضْرَبُ بِهَا لِمَعْرِفَةِ الْغَيْبِ، هَذِهِ الْأُمُورُ الْأَرْبَعَةُ كُلُّهَا خُبْثٌ وَقَذَرٌ يَنْأَى عَنْهَا الْعُقَلَاءُ؛ لِأَنَّهَا مِنْ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ، فَابْتَعِدُوا عَنْهَا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ فِي الدُّنْيَا بِحَيَاةٍ فَاضِلَةٍ وَبِنَعِيمِ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ.

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)

أَكَّدَتِ الشَّرِيعَةُ الْكَرِيمَةُ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ بِبَيَانِ مَفَاسِدِهِمَا، فَالشَّيْطَانُ يَسْعَى مِنْ خِلَالِهِمَا إِلَى زَرْعِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ، فَالْخَمْرُ إِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَى عَقْلِ شَارِبِهَا قَدْ تَجْعَلُهُ يُسِيءُ إِلَى أَهْلِهِ وَيُؤْذِي أَصْحَابَهُ وَجُلَسَاءَهُ، فَتَتَوَلَّدُ الْعَدَاوَةُ، وَالْقِمَارُ يُؤَدِّي إِلَى خَسَارَةِ الْمَالِ، فَيَصِيرُ الْمُقَامِرُ الْخَاسِرُ عَدُوًّا لِمَنْ غَلَبَهُ فِي الْمَقَامِرَةِ. لَكِنَّ الْأَخْطَرَ مِمَّا مَضَى أَنَّ الشَّيْطَانَ يُرِيدُ أَيْضًا أَنْ يَشْغَلَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ بِسَبَبِ تَعَاطِيكُمْ لِلْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ. فَبَعْدَ أَنْ عَلِمْتُمْ هَذِهِ الْأَضْرَارِ، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ؟ لَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ اللَّائِقُ بِكُمْ، فَانْتَهُوا.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)

يَا أَهْلَ الْإِيمَانِ، أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَنَهْيٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ، فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنِ الطَّاعَةِ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَسْؤُولِيَّةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَقْتَصِرُ عَلَى تَبْلِيغِ الدِّينِ وَإِخْبَارِكُمْ بِالْأَحْكَامِ، أَمَّا الْعُقُوبَةُ لِمَنْ أَعْرَضَ وَتَوَلَّى فَهِيَ بِيَدِ اللهِ، وَهَذَا تَحْذِيرٌ يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ وَعِيدًا شَدِيدًا؛ إِذْ أَنَّ الْعُقُوبَةَ مِنَ اللهِ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ.

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنَادِيًا يُنَادِي: أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَجَرَتِ الْخَمْرُ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ. فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: قَدْ قُتِلَ قَوْمٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ، أَيْ: مَاتَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ وَقَدْ شَرِبُوا الْخَمْرَ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا، فَمَا مَصِيرُهُمْ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. وَمَعْنَاهَا: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِثْمٌ وَلَا ذَمٌّ فِيمَا شَرِبُوا وَأَكَلُوا مِمَّا حَرَّمَهُ اللهُ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ قَبْلَ التَّحْرِيمِ أَوْ قَبْلَ مَعْرِفَتِهِمْ بِتَحْرِيمِهِ، إِذَا اتَّقَوُا اللهَ تَعَالَى وَآمَنُوا بِهِ وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اسْتَمَرُّوا عَلَى اجْتِنَابِ مَا حَرَّمَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَلَى الْإِيمَانِ بِهِ، ثُمَّ اسْتَمَرُّوا عَلَى اجْتِنَابِ مَا حَرَّمَهُ اللهُ تَعَالَى حَتَّى بَلَغُوا مَرْتَبَةَ الْإِحْسَانِ، وَاللهُ تَعَالَى يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ فِي عِبَادَتِهِ وَالْمُحْسِنِينَ إِلَى عِبَادِهِ.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤)

مَا زَالَ الْحَدِيثُ عَنِ الْمَطْعُومَاتِ، وَفِي الْآيَةِ بَعْضُ الْأَحْكَامِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالصَّيْدِ.

رُوِيَ عَنْ مُقَاتِلٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَةِ، حَيْثُ ابْتَلَى اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِتَحْرِيمِ الصَّيْدِ وَهُمْ مُحْرِمُونَ، فَكَانَتْ تَغْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ وَكَانُوا مُتَمَكِّنِينَ مِنْ صَيْدِهَا أَخْذًا بِأَيْدِيهِمْ وَطَعْنًا بِرِمَاحِهِمْ، فَهَمُّوا بِأَخْذِهَا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَمَعْنَاهَا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَيَخْتَبِرَنَّكُمُ اللهُ قُوَّةَ إِيمَانِكُمْ بِتَحْرِيمِ الصَّيْدِ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ حَالُ إِحْرَامِكُمْ بِالْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ، فَيُرْسِلُ إِلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالطُّيُورِ يُسَهِّلُ عَلَيْكُمْ اصْطِيَادَهُ بِأَيْدِيكُمْ وَرِمَاحِكُمْ، وَحِكْمَةُ الِاخْتِبَارِ لِيَتَمَيَّزَ مَنْ يَخْشَى اللهَ بِالْغَيْبِ عَنِ الشَّخْصِ الَّذِي لَا يَتَّقِي اللهَ تَعَالَى بِالْغَيْبِ، فَالْمُتَّقِي يَمْتَنِعُ عَنِ الصَّيْدِ، أَمَّا الَّذِي لَا يَتَّقِي اللهَ سَيَتَجَاوَزُ الْحَدَّ وَيَصْطَادُ، فَمَنْ تَجَاوَزَ الْحَدَّ وَاصْطَادَ فَلَهُ عَذَابٌ مُوجِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَقَدْ نَجَحَ الصَّحَابَةُ فِي هَذَا الِاخْتِبَارِ وَالْتَزَمُوا بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ حِينَ تَجَنَّبُوا الصَّيْدَ وَهُمْ مُحْرِمُونَ، بَيْنَمَا أَخْفَقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِيمَا يُشْبِهُ هَذَا الِاخْتِبَارَ حِينَ نَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنِ الصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْتِ فَتَحَايَلُوا عَلَى ذَلِكَ فَاسْتَحَقُّوا مِنَ اللهِ اللَّعْنَةَ، بَيْنَمَا اسْتَحَقَّتْ أُمَّتُنَا أَنْ تَكُونَ خَيْرَ أُمَّةٍ.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ الْبَرِّيَّ وَأَنْتُمْ مُحْرِمُونَ بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ أَوْ كُنْتُمْ دَاخِلَ الْحَرَمِ، وَمَنْ قَتَلَ الصَّيْدَ مُتَعَمِّدًا فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَذْبَحَ مِثْلَهُ وَنَظِيرَهُ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَتَحْدِيدُ الْكَفَّارَةِ يَحْكُمُ بِهِ رَجُلَانِ مُؤْمِنَانِ عَادِلَانِ يُقَدِّرَانِ النَّظِيرَ وَالْمِثْلَ لِلصَّيْدِ، وَمَا حُكِمَ بِهِ يُرْسَلُ بِهِ إِلَى مَكَّةَ وَيُذْبَحُ فِي الْحَرَمِ وَيُوزَّعُ لَحْمُهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ، أَوِ الْإِطْعَامُ بِأَنْ يُخْرِجَ بِقِيمَةِ الْكَفَّارَةِ طَعَامًا لِفُقَرَاءِ الْحَرَمِ لِكُلِّ فَقِيرٍ نِصْفُ صَاعٍ، أَوِ الصِّيَامُ بِأَنْ يَصُومَ يَوْمًا مُقَابِلَ إِطْعَامِ كُلِّ مِسْكِينٍ. وَقَدْ

شَرَعَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْكَفَّارَةَ لِيَذُوقَ قَاتِلُ الصَّيْدِ عَاقِبَةَ عِصْيَانِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ بِأَنَّ مَنْ قَتَلَ الصَّيْدَ قَبْلَ التَّحْرِيمِ فَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُ، أَمَّا مَنْ عَادَ الْمُخَالَفَةَ بَعْدَ أَنْ عَلِمَ بِالتَّحْرِيمِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُعَاقِبُهُ عِقَابًا شَدِيدًا، فَاللهُ عَزِيزٌ غَالِبٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي مُؤَاخَذَةِ الْمُخَالِفِينَ وَالْمُصِرِّينَ عَلَى الْعِصْيَانِ.

الدرس الثالث عشر

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى حُكْمَ صَيْدِ الْبَرِّ لِلْمُحْرِمِ، بَيَّنَ حُكْمَ صَيْدِ الْبَحْرِ وَطَعَامِهِ. فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، اللهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْحَيَوَانَاتِ الْمَائِيَّةِ، سَوَاءٌ كُنْتُمْ مُحْرِمِينَ أَمْ غَيْرَ مُحْرِمِينَ، وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا يُقْذِفُهُ الْبَحْرُ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا؛ لِأَجْلِ انْتِفَاعِكُمْ بِذَلِكَ فِي حَالِ إِقَامَتِكُمْ أَوْ سَفَرِكُمْ. أَمَّا صَيْدُ حَيَوَانِ الْبَرِّ فَحَرَامٌ عَلَيْكُمْ حَالَ إِحْرَامِكُمْ. وَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى فِي كُلِّ أَحْوَالِكُمْ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، فَهُوَ الَّذِي تَرْجِعُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ.

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧)

اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ الْكَعْبَةَ الْمُشَرَّفَةَ - وَهِيَ الْبَيْتُ الْحَرَامُ - مِحْوَرًا عَظِيمًا تَقُومُ بِهِ حَيَاةُ النَّاسِ؛ تَقُومُ بِهِ مَصَالِحُهُمُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ. فَالنَّاسُ تَفِدُ لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِلْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَيَجِدُونَ كَذَلِكَ فِي رِحَابِهَا فُرْصَةً لِتَبَادُلِ الْمَنَافِعِ وَمُمَارَسَةِ التِّجَارَةِ وَتَوْثِيقِ الْعَلَاقَاتِ فِي ظِلِّ أَمَانِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَقَدْسَتِهِ.

وَأَيْضًا جَعَلَ اللهُ تَعَالَى الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ قِيَامًا لِلنَّاسِ بِجَعْلِهِ زَمَانًا لِلْأَمْنِ وَالسَّلَامِ، تَأْمَنُ فِيهِ النُّفُوسُ مِنَ الْقِتَالِ وَالْحُرُوبِ. وَكَذَلِكَ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى الْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ الَّتِي تُسَاقُ إِلَى الْحَرَمِ قِيَامًا لِلنَّاسِ بِجَعْلِهَا إِشَارَاتٍ لِلْأَمْنِ وَالْحُرْمَةِ، يَأْمَنُ أَصْحَابُهَا مِنَ التَّعَرُّضِ لَهُمْ بِأَذًى.

فَهَذِهِ التَّشْرِيعَاتُ وَالشَّعَائِرُ تَفَضَّلَ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَيْكُمْ؛ حِمَايَةً لِمَصَالِحِكُمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، وَسَلَامًا وَأَمْنًا يَشْمَلُ الْإِنْسَانَ وَالطَّيْرَ وَالْحَيَوَانَ فِي ظِلِّ تِلْكَ الْحُرُمَاتِ. لِيَتَجَلَّى لَكُمْ عِلْمُ اللهِ تَعَالَى الشَّامِلُ وَالْمُحِيطُ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَصَالِحَ عِبَادِهِ وَمَا فِيهِ الْخَيْرُ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨)

وَلِأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْكَعْبَةَ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ قِيَامًا لِلنَّاسِ، وَأَرْضَ أَمَانٍ وَزَمَانَ أَمَانٍ؛ حَذَّرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ التَّهَاوُنِ بِهَذِهِ الشَّعَائِرِ وَالْحُرُمَاتِ أَوِ الِاعْتِدَاءِ عَلَيْهَا، وَذَكَّرَهُمْ بِجَبَرُوتِهِ وَعَزْمِهِ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ وَانْتَهَكَ حُرُمَاتِهِ، وَهُوَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ﴾.

مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩)

مَهَمَّةُ الرَّسُولِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- هِيَ تَبْلِيغُ الْأَحْكَامِ وَالتَّشْرِيعَاتِ لِلنَّاسِ؛ لِتَقُومَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ. أَمَّا مَصْدَرُ هَذِهِ الْأَحْكَامِ وَالتَّشْرِيعَاتِ فَهُوَ اللهُ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُظْهِرُونَهُ وَمَا تُخْفُونَهُ مِنْ هُدًى أَوْ ضَلَالٍ، وَمِنْ طَاعَةٍ أَوْ عِصْيَانٍ. وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الْعِلْمِ الشَّامِلِ سَيَكُونُ مِنَ اللهِ تَعَالَى الْجَزَاءُ الْعَدْلُ.

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)

اسْتِكْمَالًا لِقَضِيَّةِ التَّشْرِيعِ، أَتَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ لِتُوَضِّحَ مِعْيَارًا تَشْرِيعِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا يَتَعَلَّقُ بِالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَبَيْنَ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ. فَيَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، قُلْ لِلنَّاسِ: إِنَّهُ لَا يَتَسَاوَى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ، لَا عِنْدَ اللهِ وَلَا عِنْدَ الْعُقَلَاءِ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ الْخَبِيثُ كَثِيرَ الْعَدَدِ بَرَّاقَ الشَّكْلِ تُعْجِبُ النَّاظِرِينَ هَيْئَتُهُ! فَالْعِبْرَةُ بِالْمُخْبَرِ لَا بِالْمَظْهَرِ. فَالْخَبِيثُ مَهْمَا كَثُرَ فَإِنَّهُ ضَارٌّ سَيِّئٌ قَبِيحُ الْعَاقِبَةِ، وَالطَّيِّبُ وَإِنْ قَلَّ نَافِعٌ حَمِيدٌ جَمِيلُ الْعَاقِبَةِ.

وَهَذَا مِثْلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ. فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَاتَّقُوا اللهَ يَا أَصْحَابَ الْعُقُولِ بِأَنْ تَجْتَنِبُوا الْخَبِيثَ وَتَتَّقُوا الطَّيِّبَ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمَنْكَحِ وَالْمَكْسَبِ وَالْمَسْلَكِ وَالْمَعْرِفَةِ وَجَمِيعِ شُؤُونِ الْحَيَاةِ؛ لَعَلَّكُمْ تَنَالُونَ الْفَلَاحَ وَالنَّجَاحَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١)

كَمَا سَبَقَ تَوْضِيحُ مَسَائِلَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، جَاءَ هُنَا إِرْشَادُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى آدَابِ الِاسْتِفْتَاءِ، وَضَرُورَةِ التَّحَلِّي بِالْحِكْمَةِ وَالتَّرَبُّثِ فِي طَرْحِ السُّؤَالِ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَسْأَلُوا نَبِيَّكُمْ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَوْ غَيْرَهُ عَنْ أَشْيَاءَ لَا حَاجَةَ وَلَا فَائِدَةَ مِنْهَا؛ كَسُؤَالِ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ: "الْحَجُّ كُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟"، وَكَسُؤَالِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ: "مَنْ أَبِي يَا رَسُولَ اللهِ؟". إِنَّ الْإِجَابَةَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ قَدْ تُسِيئُكُمْ وَتُحْزِنُكُمْ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ حَرَجٍ أَوْ مَشَقَّةٍ عَلَيْكُمْ. وَلَكِنْ إِنْ سَأَلْتُمْ عَنْ أَشْيَاءَ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ بِهَا عَلَيْكُمْ؛ كَالسُّؤَالِ عَنْ آيَةٍ أُشْكِلَتْ أَوْ حُكْمٍ خَفِيَ عَلَيْكُمْ، فَلَا حَرَجَ؛ لِأَنَّ سُؤَالَكُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَتَى فِي مَحَلِّهِ. عَفَا اللهُ تَعَالَى عَنْ مَسَائِلِكُمْ السَّابِقَةِ الَّتِي لَا حَاجَةَ لَهَا، فَلَا تَعُودُوا لَهَا مِثْلَهَا. وَاللَّهُ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ حَلِيمٌ؛ لَا يُعَجِّلُ بِالْعُقُوبَةِ.

يَا أَهْلَالْإِيمَانِ، لَقَدْ جَاءَ هَذَا الْقُرْآنُ لَيْسَ لِيُقَرِّرَ عَقِيدَةً فَحَسْبُ، وَلَا لِيُشَرِّعَ شَرِيعَةً فَقَطْ، وَلَكِنْ لِيَصْنَعَ أُمَّةً، وَيُنْشِئَ جِيلًا، وَيُرَبِّيَ أَفْرَادًا عَلَى مَنْهَجٍ عَقْلِيٍّ وَمَسْلَكٍ خُلُقِيٍّ. وَهُنَا هُوَ يُعَلِّمُهُمْ حُدُودَ الْبَحْثِ وَمَنْهَجَ الْمَعْرِفَةِ وَأَدَبَ السُّؤَالِ.

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، احْذَرُوا مِنْ تَكْرَارِ أَخْطَاءِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ. فَلَقَدْ سَأَلَ قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنْبِيَاءَهُمْ أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ الَّتِي لَا فَائِدَةَ مِنْهَا، فَجَاءَتْهُمُ الْإِجَابَةُ وَكُلِّفُوا بِهَا، فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ تَنْفِيذُهَا، فَأَعْرَضُوا عَنْهَا، فَأَصْبَحُوا كَافِرِينَ بِسَبَبِهَا. وَذَلِكَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يَسْتَفْتُونَ أَنْبِيَاءَهُمْ عَنْ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أُمِرُوا بِهَا تَرَكُوهَا فَهَلَكُوا.

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)

خُرَافَاتٌ تَمَسَّكَ بِهَا أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَجَعَلُوهَا عَادَاتٍ مُقَدَّسَةً، مُعْتَدِينَ بِذَلِكَ عَلَى حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِي التَّشْرِيعِ. فَاللهُ تَعَالَى أَحَلَّ الْأَنْعَامَ كُلَّهَا، وَلَمْ يُحَرِّمْ مَا حَرَّمَهُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ: بَحِيرَةٍ، وَ سَائِبَةٍ، وَ وَصِيلَةٍ، وَ حَامٍ. فَمَا هَذِهِ الْأَصْنَافُ؟

· الْبَحِيرَةُ: هِيَ نَاقَةٌ يَقْطَعُونَ أُذُنَهَا إِذَا أَنْجَبَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ آخِرُهَا ذَكَرٌ.

· وَالسَّائِبَةُ: هِيَ نَاقَةٌ تُتْرَكُ لِأَصْنَامِهِمْ إِذَا نَذَرُوا.

· وَالْوَصِيلَةُ: هِيَ النَّاقَةُ الَّتِي أَنْجَبَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْنِهَا السَّابِعِ.

· وَالْحَامِي: هُوَ فَحْلُ الْإِبِلِ إِذَا نَتَجَ مِنْ صُلْبِهِ عَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ.

الْكُفَّارُ حَرَّمُوا أَكْلَ هَذِهِ الْأَنْعَامِ، وَمَنَعُوا الِانْتِفَاعَ بِهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَتَجَرَّأُوا عَلَى التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، ثُمَّ نَسَبُوا هَذَا التَّشْرِيعَ إِلَى اللهِ تَعَالَى كَذِبًا وَزُورًا، وَقَالُوا: اللهُ أَمَرَنَا بِهَذَا. لَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ يَفْتَقِرُونَ إِلَى الْعَقْلِ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَى خُرَافَاتِهِمْ بِفِعْلِ آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)

تُسْرِدُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ صُورَةً قَاتِمَةً عَنْ حَالِ أُولَئِكَ الْعَوَامِّ الْمُقَلِّدِينَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا عُقُولَهُمْ لِقُيُودِ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى. فَإِذَا مَا دَعَاهُمْ نَاصِحٌ إِلَى اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى مِنْ نُورٍ وَهُدَايَاتٍ، وَمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ مِنْ عِلْمٍ وَإِرْشَادَاتٍ، وَاجَهُوا ذَلِكَ بِعِنَادٍ قَائِلِينَ: "يَكْفِينَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاؤُنَا وَأَسْلَافُنَا!".

إِنَّهَا حُجَّةُ كُلِّ ضَالٍّ مُقَلِّدٍ، اعْتَادَ الْعَيْشَ أَسِيرًا لِلْأَوْهَامِ، وَعَبْدًا ذَلِيلًا لِلْخُرَافَاتِ. وَكَيْفَ يَكْفِيهِمْ تَقْلِيدُ الْآبَاءِ وَهُمْ غَارِقُونَ فِي الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ، لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِنَ الْهُدَى؟! فَهَلْ هَؤُلَاءِ مُؤَهَّلُونَ لِلتَّقْلِيدِ وَالِاتِّبَاعِ؟

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَعْوَةٌ لِلْعِنَايَةِ بِإِصْلَاحِ النَّفْسِ وَالِاهْتِمَامِ بِالذَّاتِ، وَسَطَ كُلِّ مَا يُحِيطُ بِنَا مِنْ ضَلَالَاتٍ وَشُبُهَاتٍ وَنِقَاشَاتٍ وَحِوَارَاتٍ. فَإِذَا وَصَلَ أَحَدُ الْمُخَالِفِينَ إِلَى تَبْرِيرِ أَخْطَائِهِ بِكَوْنِهِ مُجَرَّدَ مُقَلِّدٍ تَافِهٍ، فَاعْلَمُوا أَنَّ حُجَّتَهُ قَدِ انْقَطَعَتْ، وَلِذَلِكَ لَجَأَ إِلَى أُسْلُوبِ الْمُكَابَرَةِ وَالْعِنَادِ، مُتَشَبِّثًا بِتُرَاثِ الْآبَاءِ وَالْأَسْلَافِ. لِذَا، ابْذُلُوا اهْتِمَامَكُمُ الْأَكْبَرَ نَحْوَ أَنْفُسِكُمْ؛ بِالْحِرْصِ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَتَزْكِيَتِهَا. لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ مَا دُمْتُمْ أَنْتُمْ قَدِ اهْتَدَيْتُمْ، فَلَسْتُمْ مَسْؤُولِينَ عَنْ ضَلَالِهِمْ بَعْدَ أَنْ بَذَلْتُمْ جُهْدَكُمْ فِي دَعْوَتِهِمْ.

ثُمَّتَفْتَحُ الْآيَةُ مَسَاحَةً لِلتَّأَمُّلِ فِي نِهَايَةِ كُلِّ نَفْسٍ؛ إِذْ يَنْتَهِي الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَى اللهِ. فَمَصِيرُكُمْ وَمَصِيرُ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، فَلَا مَفَرَّ مِنَ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُنَاكَ يُخْبِرُكُمُ اللهُ تَعَالَى بِأَعْمَالِكُمْ، وَسَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦)

وَبِمَا أَنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ هِيَ سُورَةُ الْعُقُودِ - كَمَا ذَكَرْنَا - فَلَا غَرَابَةَ أَنْ تُخْتَمَ حَدِيثُهَا عَنِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِتَوْجِيهِ الْأَنْظَارِ إِلَى أَهَمِّيَّةِ الشَّهَادَةِ الَّتِي فِي حَالَاتِ الْوَصِيَّةِ؛ لِضَمَانِ الْعَدَالَةِ وَالْأَمَانَةِ فِي التَّعَامُلَاتِ.

فَإِلَى الْمُؤْمِنِينَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِذَا دَنَتْ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ مِنْ أَحَدِكُمْ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُكْتَبَ وَصِيَّتَهُ، وَلْيَشْهَدَ عَلَيْهَا اثْنَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْعُدُولِ. فَإِذَا تَعَذَّرَ وُجُودُهُمَا، فَلَا مَانِعَ مِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِشَاهِدَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي حَالِ كُنْتُمْ فِي سَفَرٍ وَظَهَرَتْ أَمَارَاتُ الْمَوْتِ. وَإِذَا وَقَعَ الشَّكُّ فِي شَهَادَتِهِمَا، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَوْثِقُوا مِنْ صِدْقِ شَهَادَتِهِمَا عَنْ طَرِيقِ الْقَسَمِ؛ فَأَوْقِفُوهُمَا بَعْدَ الصَّلَاةِ وَقْتَ تَوَاجُدِ النَّاسِ، لِيَحْلِفَا بِاللَّهِ قَائِلَيْنِ: "لَا نَحْلِفُ بِاللَّهِ كَذِبًا مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَا نُحَابِي بِشَهَادَتِنَا أَحَدًا وَلَوْ كَانَ مِنْ أَقَارِبِنَا، وَلَا نُخْفِي الشَّهَادَةَ الَّتِي أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِأَدَائِهَا. فَإِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ كُنَّا مِنَ الْمُذْنِبِينَ الْمُسْتَحِقِّينَ لِعَذَابِ اللهِ".

وَبِمِثْلِهَذِهِ التَّشْرِيعَاتِ الْحَكِيمَةِ، يَبْقَى الْمُجْتَمَعُ مُسْتَنِدًا إِلَى قَوَاعِدِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، مُحَافِظًا عَلَى حُقُوقِ الْعِبَادِ مِنَ الضَّيَاعِ.

الدرس الرابع عشر

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:

فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧)

أَوْرَدَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: أَنَّ الصَّحَابِيَّ أَبَا زَيْدٍ السُّهْمِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ إِلَىٰ الشَّامِ لِلتِّجَارَةِ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَاءٍ، وَكَانَا نَصْرَانِيَّيْنِ، ثُمَّ أَسْلَمَ تَمِيمٌ

بَعْدَ ذَٰلِكَ. تَوَفِّيَ السَّهْمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الطَّرِيقِ، وَقَدْ أَوْصَىٰ الرَّجُلَيْنِ بِإِيصَالِ مَالِهِ لِأَهْلِهِ. فَلَمَّا تَسَلَّمَ أَهْلُهُ مَالَهُ وَمَتَاعَهُ افْتَقَدُوا إِنَاءً مِنْ فِضَّةٍ مَنْقُوشًا بِالذَّهَبِ. أَنْكَرَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ وَعَدِيُّ بْنِ بَدَاءٍ أَخْذَ ذَٰلِكَ الْإِنَاءِ، وَحَلَفَا أَمَامَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَدَمِ خِيَانَتِهِمَا. ثُمَّ إِنَّ الْإِنَاءَ وُجِدَ فِي مَكَّةَ، وَأُخْبِرَ مَنْ كَانَ مَعَهُ بِأَنَّهُ اشْتَرَاهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّهُمَا أَقْسَمَا كَذِبًا وَخَانَا الْأَمَانَةَ. فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ أَبِي زَيْدٍ السَّهْمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (الرَّجُلِ الَّذِي مَاتَ) وَحَلَفَا أَنَّ الْإِنَاءَ لِصَاحِبِهِمَا السَّهْمِيِّ، وَأَنَّ يَمِينَهُمَا أَصْدَقُ مِنْ يَمِينِ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ وَالَّتِي قَبْلَهَا.

وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: إِذَا كُشِفَ بَعْدَ التَّحَرِّي وَالْبَحْثِ أَنَّ الشَّاهِدَيْنِ قَدْ كَذَبَا فِي الشَّهَادَةِ أَوْ أَخْفَيَا شَيْئًا، فَحِينَئِذٍ يَقُومُ رَجُلَانِ آخَرَانِ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَى الْمَيِّتِ يَقُومَانِ مَقَامَ الشَّاهِدَيْنِ الْخَائِنَيْنِ، وَيَشْهَدَانِ عَلَىٰ مَا هُوَ حَقٌّ، فَيُحْلِفَانِ بِاللَّهِ: {بِأَنَّ شَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ}، أَيْ: إِنَّ شَهَادَتَنَا أَصْدَقُ وَأَوْلَىٰ بِالسَّمَاعِ وَالِاعْتِبَارِ مِنْ شَهَادَةِ الشَّاهِدَيْنِ السَّابِقَيْنِ؛ لِأَنَّهُمَا كَذَبَا فِيهَا وَخَانَا، وَنَحْنُ لَمْ نُتَّهَمِ الشَّاهِدَيْنِ زُورًا، فَإِنْ كَذَبْنَا عَلَيْهِمَا أَصْبَحْنَا فِي عِدَادِ الظَّالِمِينَ الْمُسْتَحِقِّينَ لِغَضَبِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَعِقَابِهِ. وَبِهَٰذَا الْإِجْرَاءِ يَضْمَنُ التَّشْرِيعُ الْإِسْلَامِيُّ دِقَّةَ الشَّهَادَةِ وَالْعَدَالَةَ فِي الْمُعَامَلَاتِ،

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)

بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى الْحِكْمَةَ وَالْمَصْلَحَةَ فِي الْإِجْرَاءَاتِ الَّتِي شَرَعَهَا فِي مَسْأَلَةِ الْإِشْهَادِ عَلَى الْوَصِيَّةِ وَتَحْلِيفِ الشَّاهِدَيْنِ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ، بِأَنَّ هَٰذَا التَّشْرِيعَ هُوَ أَقْرَبُ الطُّرُقِ وَأَضْبَطُهَا لِكَيْ يُؤَدُّوا الشُّهُودُ شَهَادَتَهُمْ بِالْوَجْهِ الصَّحِيحِ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ وَلَا تَبْدِيلٍ وَلَا تَلَاعُبٍ. وَهَٰذَا التَّشْرِيعُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَنْ يَخَافَ الشَّاهِدَانِ أَلَّا تُقْبَلَ أَيْمَانُهُمَا إِنْ ظَهَرَ كَذِبُهُمْ وَخِيَانَتُهُمْ، فَلَا يَحْلِفَانِ كَذِبًا حِينَئِذٍ، حَتَّىٰ لَا يُفْتَضَحَا. {وَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَىٰ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ، وَرَاقِبُوا اللَّهَ تَعَالَىٰ فِي أَيْمَانِكُمْ وَأَمَانَاتِكُمْ، وَاسْمَعُوا مَا تُؤْمَرُونَ بِهِ وَأَطِيعُوا أَحْكَامَهُ وَلَا تُخَالِفُوهَا، فَمَنْ خَالَفَهَا أَصْبَحَ مِنَ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ، الَّذِينَ لَا يُوَفِّقُهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَى الْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ}، فَأَمْثَالُ هَٰؤُلَاءِ الْمُنْهَزِمِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ التَّشْرِيعَاتِ الْإِلَٰهِيَّةَ قَدْ فَقَدَتْ صَلَاحِيَّتَهَا بِسَبَبِ تَطَوُّرِ وَسَائِلِ الْحَيَاةِ الْحَدِيثَةِ، وَيَتَنَاسَوْنَ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ جَاءَ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَتَشْرِيعَاتُهُ تُلَبِّي احْتِيَاجَاتِ الْبَشَرِيَّةِ مَهْمَا تَقَدَّمَتْ، فَهُوَ دِينٌ شَامِلٌ يُوَاكِبُ تَطَوُّرَاتِ الْحَيَاةِ وَتَعْقِيدَاتِهَا.

وَبَعْدَ أَنْ سَاقَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ جَانِبًا كَبِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ وَالتَّشْرِيعَاتِ وَأَحْوَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَعَقَائِدِهِمُ الزَّائِفَةِ، إِذْ بِهَا تَنْتَقِلُ فِي خَاتِمَتِهَا إِلَىٰ مَشْهَدٍ آخَرَ عَنْ أَحْوَالِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَذَكَّرُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَاكَ الْيَوْمُ الرَّهِيبُ، حِينَ يَجْمَعُ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَمَامَهُ كُلَّ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، نُقَبَاءَ الْبَشَرِيَّةِ وَحَمَلَةَ الرِّسَالَاتِ الْإِلَٰهِيَّةِ، فَيَسْأَلُهُمْ: مَاذَا الَّذِي أَجَابَتْكُمْ بِهِ أَقْوَامُكُمْ حِينَ أَرْسَلْتُكُمْ إِلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ؟ أَمْ بِالْإِنْكَارِ؟ فِي ذَٰلِكَ الْمَوْقِفِ، وَالْأُمَمُ حِينَئِذٍ حَاضِرَةٌ لِتَقُومَ عَلَيْهَا الْحُجَّةُ. فَيَقُولُونَ مُفَوِّضِينَ الْجَوَابَ إِلَى اللَّهِ: {لَا عِلْمَ لَنَا يَا اللَّهُ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ لَكَ، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ مَا عِنْدَنَا مِنْ عِلْمٍ، فَأَنْتَ أَعْلَمُ مِنَّا، وَأَنْتَ أَعْلَمُ مَا لَا نَعْلَمُ}. وَفِي هَٰذَا الْجَوَابِ تَسْلِيمٌ كَامِلٌ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، وَإِظْهَارٌ لِلشَّكْوَىٰ بِمَا لَقُوهُ مِنْ قَوْمِهِمْ مِنَ الْخُطُوبِ وَمَا كَابَدُوهُ مِنَ الْكُرُوبِ.

وَبَعْدَ هَٰذَا الْحِوَارِ الْمُخْتَصَرِ الْمُجْمَلِ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَبَيْنَ الرُّسُلِ الْمَجْمُوعِينَ، شَرَعَتِ السُّورَةُ عَلَىٰ وَجْهِ التَّفْصِيلِ ذِكْرَىٰ حِوَارٍ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَبَيْنَ نَبِيٍّ كَرِيمٍ فُتِنَ بِهِ قَوْمُهُ، وَحَامَتْ حَوْلَهُ الشُّبُهَاتُ الَّتِي حَجَبَتِ الرُّؤْيَةَ عَنْ حَقِيقَةِ رِسَالَتِهِ، إِنَّهُ الْمَسِيحُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ قَالَ اللَّهُ:

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠)

فِي ذَٰلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ، يُذَكِّرُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ بِالنِّعَمِ الَّتِي أَفَاضَهَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ وَالِدَتِهِ، قَائِلًا لَهُ: اذْكُرْ مَا أَجْرَيْتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِّكَ مِنَ النِّعَمِ الْمُتَعَدِّدَةِ: حِينَ طَهَّرْتُ مَرْيَمَ مِنْ كُلِّ شَكٍّ وَرِيبَةٍ، وَاصْطَفَيْتُهَا عَلَىٰ نِسَاءِ زَمَانِهَا، وَقَوَّيْتُكَ يَا عِيسَىٰ بِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَعَنْتُكَ بِهِ، وَأَنْطَقْتُكَ وَأَنْتَ رَضِيعٌ بِمَا يُبْرِئُ أُمَّكَ، كَمَا أَنْطَقْتُكَ وَأَنْتَ كَبِيرٌ بِمَا قَدْ أَوْحَيْتُ إِلَيْكَ. وَاذْكُرْ يَا عِيسَىٰ أَيْضًا نِعْمَتِي عَلَيْكَ: إِذْ عَلَّمْتُكَ الْخَطَّ وَالْكِتَابَةَ وَالْفَهْمَ، وَآتَيْتُكَ الْحِكْمَةَ الَّتِي هِيَ سَدَادٌ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ

وَالْفَهْمِ، وَعَلَّمْتُكَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا فِيهِمَا مِنْ أَحْكَامٍ وَتَشْرِيعٍ. وَمِمَّا أَنْعَمْتُ بِهِ عَلَيْكَ: أَنِّي أَيَّدْتُكَ بِمُعْجِزَاتٍ تَخْرُجُ عَنْ طَوْقِ الْبَشَرِ: إِذْ تُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ مِثْلَ شَكْلِ الطَّيْرِ فَتَنْفُخُ فِي هٰذَا الشَّكْلِ فَيَصْبِحُ طَيْرًا حَيًّا بِإِذْنِي، وَتُشْفَى الَّذِي وُلِدَ أَعْمَىٰ فَيُبْصِرُ بِإِذْنِي، كَمَا تُشْفِي الْمُصَابَ بِالْبَرَصِ فَيَعُودُ جِلْدُهُ سَلِيمًا بِإِذْنِي، وَتُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءً بِإِذْنِي. وَاذْكُرْ يَا عِيسَىٰ أَيْضًا نِعْمَتِي عَلَيْكَ: إِذْ مَنَعْتُ وَصَرَفْتُ الْيَهُودَ عَنْكَ، وَقَدْ هَمُّوا بِإِيذَائِكَ وَقَتْلِكَ، فَعَصَمْتُكَ وَحَفِظْتُكَ مِنْهُمْ. وَذٰلِكَ حِينَ جِئْتَهُمْ بِالْمُعْجِزَاتِ وَالْحُجَجِ عَلَىٰ صِدْقِكَ فِي رِسَالَتِكَ، فَعَجَزُوا عَنْ مُوَاجَهَتِكَ بِالْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ، فَلَجَأُوا إِلَى التَّكْذِيبِ وَالتَّضْلِيلِ، فَقَالَ كُفَّارُ بَنِي إِسْرَائِيلَ: {الَّذِي أَتَىٰ بِهِ عِيسَىٰ مَا هُوَ إِلَّا سِحْرٌ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ مُبِينٌ}.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)

بَعْدَ أَنْ أَظْهَرَ الْمَسِيحُ الْمُعْجِزَاتِ الْعَظِيمَةَ الَّتِي أَيَّدَهُ اللَّهُ بِهَا، لَمْ يَجِدْ مِنْ قَوْمِهِ آذَانًا وَاعِيَةً، وَأَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ، نَادَىٰ فِي الْجُمُوعِ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ كَانَ الْكَافِرُونَ هُمُ الْأَغْلَبِيَّةَ الْمُسَيْطِرَةَ، وَالْمُؤْمِنُونَ هُمْ قِلَّةَ الْمُسْتَضْعَفَةَ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّ عِيسَىٰ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ فِي جُمُوعِ الْكَافِرِينَ بَاحِثًا عَنْ مُنَاصِرِينَ يَنْضَمُّونَ إِلَىٰ دَعْوَتِهِ. وَهَاهُنَا تَتَجَلَّىٰ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَمِنَّتُهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ عِيسَىٰ، إِذْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِأَنْ هَيَّأَ لَهُ أَنْصَارًا مُخْلِصِينَ وَأَصْحَابًا صَادِقِينَ، هُمُ الْحَوَارِيُّونَ. كَانَ الْحَوَارِيُّونَ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، يَعْمَلُونَ فِي صَيْدِ السَّمَكِ، بُسَطَاءَ فِي حَالِهِمْ، وَلٰكِنْ عُظَمَاءَ فِي إِيمَانِهِمْ. فَأَلْهَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْحَوَارِيِّينَ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ نُورَ الْيَقِينِ، أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَبِرَسُولِهِ الْمَسِيحِ، مَعَ قِلَّتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ، فَامْتَثَلُوا مَا أُلْهِمُوا بِهِ، وَأَعْلَنُوا إِيمَانَهُمْ غَيْرَ آبِهِينَ بِمَا قَدْ يُوَاجِهُونَهُ مِنْ أَذَىٰ قَوْمِهِمْ، وَصَارُوا خَاصَّةَ أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ رِسَالَتَهُ، وَقَالُوا: {آمَنَّا وَاشْهَدْ يَا رَبَّنَا بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} لَكَ مُنْقَادُونَ لِأَوَامِرِكَ. إِنَّهَا النِّعَمُ الَّتِي تَتَوَالَىٰ عَلَىٰ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، لِتَكُونَ لَهُ شَهَادَةً وَبَيِّنَةً وَرِفْعَةً وَعُلُوَّ مَنْزِلَةٍ.

وَبَعْدَ ذٰلِكَ، يَنْقُلُنَا الْقُرْآنُ إِلَىٰ جَانِبٍ مِنَ الْحِوَارِ الَّذِي دَارَ بَيْنَ عِيسَى الْمَسِيحِ وَبَيْنَ الْحَوَارِيِّينَ، إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ:

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)

اذْكُرْ حِينَ طَلَبَ الْحَوَارِيُّونَ آيَةً وَمُعْجِزَةً، فَقَالُوا: يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةَ طَعَامٍ مِنَ السَّمَاءِ؟ لَمْ يَكُنْ طَلَبُهُمْ هٰذَا بِدَافِعِ الشَّكِّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ، فَقَدْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، وَلٰكِنْ نَبْرَةَ سُؤَالِهِمْ حَمَلَتْ مَا يَسْتَدْعِي اللَّوْمَ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ: الْأُولَىٰ أَنَّهُمْ طَلَبُوا آيَةَ الْمَائِدَةِ رَغْمَ مُشَاهَدَتِهِمْ قَبْلَ ذٰلِكَ لِأَعْظَمِ الْمُعْجِزَاتِ عَلَىٰ يَدِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالَّتِي تَكْفِي لِتَثْبِيتِ إِيمَانِهِمْ. وَالثَّانِيَةُ: نَكَارَةُ اللَّفْظِ الَّذِي صَدَرَ مِنْهُمْ حِينَ قَالُوا: {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ؟} فَالنُّبُوَّاتُ لَا تَقُومُ عَلَى اخْتِبَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ، بَلْ شَأْنُ الْمُؤْمِنِ الِاسْتِسْلَامُ الْكَامِلُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ. عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ الْمُرَبِّي وَالْمُعَلِّمُ، نَصَحَهُمْ وَذَكَّرَهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ قَائِلًا: {اتَّقُوا اللَّهَ وَامْتَنِعُوا عَنْ هٰذَا الطَّلَبِ، وَامْلَأُوا قُلُوبَكُمْ هَيْبَةً وَخَشْيَةً مِنَ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقًّا، وَإِذَا كُنْتُمْ كَذٰلِكَ فَمَا حَاجَتُكُمْ إِلَىٰ هٰذَا الطَّلَبِ؟}

{قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ}.

اعْتَذَرَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ طَرِيقِ تَوْظِيفِ أَسْبَابِ طَلَبِهِمْ إِنْزَالِ الْمَائِدَةِ: أَوَّلُهَا: غِذَاءٌ لِبُطُونِنَا فَنَأْكُلُ مِنْهَا. وَثَانِيهَا: غِذَاءٌ لِأَرْوَاحِنَا فَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا. وَثَالِثُهَا: قُوَّةٌ لِإِيمَانِنَا فَنَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا. وَرَابِعُهَا: دَلِيلًا لِقَوْمِنَا فَنَشْهَدُ عَلَىٰ هٰذِهِ الْمُعْجِزَةِ وَنُبَلِّغُهَا لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا.

هٰذَا الْحِوَارُ يَكْشِفُ لَنَا طَبِيعَةَ قَوْمِ عِيسَىٰ، فَإِذَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَرْقٌ كَبِيرٌ وَبَوْنٌ شَاسِعٌ: فَالْحَوَارِيُّونَ بَعْدَمَا رَأَوْا كَثِيرًا مِنْ مُعْجِزَاتِ عِيسَى الْبَاهِرَةِ، لَا يَزَالُونَ يَطْلُبُونَ خَارِقَةً جَدِيدَةً تَطْمَئِنُّ بِهَا نُفُوسُهُمْ، يَطْلُبُونَ مَائِدَةَ طَعَامٍ لِيَعْلَمُوا صِدْقَ رَسُولِهِمْ. بَيْنَمَا صَحَابَةُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَمْ يَطْلُبُوا مِنْهُ خَارِقَةً وَاحِدَةً بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ! لَقَدْ آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ نُفُوسُهُمْ مُنْذُ أَنْ خَالَطَتْهَا بَشَاشَةُ الْإِيمَانِ، وَلَقَدْ صَدَّقُوا رَسُولَهُمْ فَلَمْ يَعُودُوا يَطْلُبُونَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَيَّ بُرْهَانٍ، وَقَدْ شَهِدُوا لَهُ بِلَا مُعْجِزَةٍ إِلَّا آيَاتِ الْقُرْآنِ. هٰذَا هُوَ الْفَارِقُ الْكَبِيرُ بَيْنَ حَوَارِيِّ عِيسَىٰ وَبَيْنَ حَوَارِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ: ذَاكَ مُسْتَوًى، وَهٰذَا مُسْتَوًى. أُولٰئِكَ مُسْلِمُونَ، وَهٰؤُلَاءِ مُسْلِمُونَ. أُولٰئِكَ مَقْبُولُونَ، وَهٰؤُلَاءِ مَقْبُولُونَ. وَلٰكِنْ تَبْقَى الْمُسْتَوَيَاتُ الْمُتَبَاعِدَةُ كَمَا أَرَادَهَا اللَّهُ.

وَالسُّؤَالُ الْآنَ: كَيْفَ كَانَ رَدُّ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ طَلَبِ الْحَوَارِيِّينَ؟ وَبِمَاذَا أَجَابَهُمْ؟

الدرس الخامس عشر

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ:

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)

بعد أن سمعَ المسيحُ عيسى عليه السلام من الحواريين ما قالوه في سبب طلبهم لنزول المائدة من السماء، تضرَّعَ عيسى إلى ربِّه قائلاً: "رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةَ طَعَامٍ مِنَ السَّمَاءِ، نَتَّخِذُ مِنْ يَوْمِ نُزُولِهَا عِيدَ فَرَحٍ وَسُرُورٍ نُعَظِّمُهُ نَحْنُ وَمَنْ بَعْدَنَا شُكْرًا لَكَ، وَتَكُونُ عَلامَةً وَبُرْهَانًا عَلَى وَحْدَانِيَّتِكَ وَعَلَى صِدْقِ مَا بَعَثْتَنِي بِهِ، وَارْزُقْنَا يَا اللهُ رِزْقًا طَيِّبًا يُعِينُنَا عَلَى عِبَادَتِكَ، وَأَنْتَ يَا رَبَّنَا خَيْرُ الرَّازِقِينَ".

قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)

أتى الجوابُ من الله تعالى: "إِنِّي سَأُنْزِلُ عَلَيْكُمُ المَائِدَةَ مِنَ السَّمَاءِ" إجابةً لدعاء عيسى، "لكن مَنْ يَكْفُرْ مِنْكُمْ بَعْدَ نُزُولِهَا فَإِنِّي سَوْفَ أُعَاقِبُهُ عِقَابًا شَدِيدًا لَا أُعَاقِبُ بِمِثْلِهِ أَحَدًا مِنَ البَشَرِ؛ لأَنَّهُ كَفَرَ بَعْدَ وُضُوحِ الحُجَّةِ وَظُهُورِ المُعْجِزَةِ، مِمَّا يَسْتَوْجِبُ أَعْظَمَ العِقَابِ". وهذا تَهْدِيدٌ عَظِيمٌ لَيْسَ لَهُ مَثِيلٌ، تَذُوبُ لِهَوْلِهِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ. فإنَّ اللهَ تعالى حِينَ يُرْسِلُ رَسُولًا، فَهُوَ يَخْتَارُ الآيَةَ المُنَاسِبَةَ لَهُ وَلِلْعَصْرِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ، وَمَا اقْتَرَحَ قَوْمٌ آيَةً وَجَاءَ اللهُ بِهَا ثُمَّ جَحَدُوهَا إِلَّا أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِمْ أَشَدَّ العَذَابِ.

وَإِلَى هُنَا تَوَقَّفَ السِّيَاقُ القُرْآنِيُّ، وَلَمْ يُذْكَرْ هَلْ نَزَلَتِ المَائِدَةُ أَمْ لَا. وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَ أَهْلُ العِلْمِ فِي هَذَا: فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ المَائِدَةَ لَمْ تَنْزِلْ، وَأَنَّ الحَوَارِيِّينَ قَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِيهَا؛ وَذَلِكَ خَوْفًا مِنَ التَّهْدِيدِ الإِلَهِيِّ. وَذَهَبَ جُمْهُورُ العُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ المَائِدَةَ نَزَلَتِ اسْتِجَابَةً لِدُعَاءِ نَبِيٍّ، وَلِخَبَرِ اللهِ تَعَالَى بِنُزُولِهَا حِينَ قَالَ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وَوَعْدُ اللهِ تَعَالَى وَوَعِيدُهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ لَا يَتَخَلَّفُ. وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: "وَهَذَا القَوْلُ هُوَ الصَّوَابُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الأَخْبَارُ وَالآثَارُ عَنِ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ".

وَفِي خِتَامِ سُورَةِ المَائِدَةِ، انْتَقَلَتِ السُّورَةُ إِلَى المَشْهَدِ الأَخِيرِ فِي فُصُولِ قِصَّةِ المَسِيحِ:

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)

نَسْمَعُ هَذِهِ الآيَةَ الكَرِيمَةَ، وَكَأَنَّنَا أَمَامَ هَذَا المَشْهَدِ العَظِيمِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ العَصِيبِ؛ حَيْثُ يَقِفُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَامَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي مَشْهَدٍ جَلِيلٍ، حَيْثُ يَسْأَلُهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سُؤَالًا عَظِيمًا حَوْلَ الأُلُوهِيَّةِ المَنْسُوبَةِ لِلنَّبِيِّ عِيسَى وَأُمِّهِ مَرْيَمَ، وَذَلِكَ فِي مُوَاجَهَةِ الَّذِينَ عَبَدُوهُ؛ لِيَسْمَعُوهُ وَهُوَ يَتَبَرَّأُ إِلَى رَبِّهِ فِي دَهْشَةٍ وَفَزَعٍ مِنْ هَذَا الأَمْرِ الَّذِي نُسِبَ إِلَيْهِ. يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: "يَا عِيسَى، هَلْ أَنْتَ دَعَوْتَ النَّاسَ إِلَى عِبَادَتِكَ وَالاعْتِقَادِ بِأُلُوهِيَّتِكَ وَأُلُوهِيَّةِ أُمِّكَ؟"

فَيَأْتِي جَوَابُ العَبْدِ الخَاشِعِ المُنِيبِ، وَهُوَ يَبْدَأُ بِتَسْبِيحِ اللهِ فَيَقُولُ: "سُبْحَانَكَ يَا اللهُ". بَادَرَ المَسِيحُ بِتَنْزِيهِ اللهِ تَعَالَى المُطْلَقِ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ، وَهُوَ أَهَمُّ وَأَوْلَى مِنْ تَبْرِئَةِ نَفْسِهِ. ثُمَّ ارْتَقَى المَسِيحُ فِي تَعْظِيمِ اللهِ، فَأَكَّدَ هَذَا التَّنْزِيهَ بِإِعْلَانِ عَدَمِ أَحَقِّيَّتِهِ لِقَوْلِ ذَلِكَ الكَلَامِ، فَيَقُولُ: "لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَقُولَ قَوْلًا لَا يَحِقُّ لِي أَنْ أَقُولَهُ". ثُمَّ أَضَافَ المَسِيحُ إِلَى كُلِّ ذَلِكَ إِظْهَارًا ضَعْفَهُ البَشَرِيَّ أَمَامَ جَنَابِ اللهِ وَعِلْمِهِ المُطْلَقِ وَقُدْرَتِهِ الكَامِلَةِ: "إِنْ كُنْتُ قُلْتُ هَذَا الكَلَامَ فَأَنْتَ يَا اللهُ تَعْلَمُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يُخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ. فَأَنْتَ تَعْلَمُ حَقِيقَةَ ذَاتِي وَمَا أَضْمَرُهُ فِي نَفْسِي، وَلَا أَعْلَمُ مَا تُخْفِيهِ فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ".

وَبَعْدَ هَذِهِ التَّوْطِئَةِ العَرِيضَةِ وَالتَّسْبِيحَةِ الطَّوِيلَةِ، يَجْرُؤُ المَسِيحُ أَخِيرًا عَلَى الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ بِلَهْجَةٍ مَمْلُوءَةٍ بِالخُشُوعِ وَالإِنَابَةِ:

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)

"مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ"؛ يُؤَكِّدُ المَسِيحُ أَنَّهُ لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ التَزَمَ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ الَّتِي أُمِرَ بِهَا، قَائِلًا لِقَوْمِهِ: "اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ". وَهَنَا يَظْهَرُ بَرَاءَةُ المَسِيحِ بِشَكْلٍ وَاضِحٍ وَصَرِيحٍ مِنْ كُلِّ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنِ افْتِرَاءَاتٍ حَوْلَ الأُلُوهِيَّةِ،

مُوَضِّحًا أَنَّهُ كَانَ رَسُولًا أَمِينًا يُبَلِّغُ رِسَالَةَ التَّوْحِيدِ. ثُمَّ يُخْلِي يَدَهُ مِنْهُمْ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ لَهُمْ، فَيَقُولُ بِكُلِّ وُضُوحٍ: "وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ"؛ أَيْ أَنَّهُ كَانَ شَاهِدًا عَلَى أَفْعَالِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ طِيلَةَ وُجُودِهِ بَيْنَهُمْ. فَلَمَّا قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَى بِرَفْعِهِ إِلَيْهِ، تَبَرَّأَ مِمَّا جَرَى بَعْدَهُ، مُشِيرًا إِلَى أَنَّ اللهَ هُوَ المُطَّلِعُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ رَفْعِهِ. ثُمَّ قَالَ: "وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"؛ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ عِلْمَ اللهِ تَعَالَى شَامِلٌ وَمُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يَغِيبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فِي إِشَارَةٍ وَاضِحَةٍ إِلَى عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِأَقْوَالِ قَوْمِهِ وَأَفْعَالِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ بَعْدَ رَحِيلِهِ.

إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)

يَخْتِمُ المَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُرَافَعَتَهُ بِتَفْوِيضِ أَمْرِ قَوْمِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى؛ فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يُجَازِيهِمْ بِهِ؛ لأَنَّ المَقَامَ مَقَامُ إِمْسَاكٍ عَنْ إِبْدَاءِ رَغْبَةٍ لِشِدَّةِ هَوْلِ ذَلِكَ اليَوْمِ. فَيَقُولُ: "إِنْ تُعَذِّبْهُمْ يَا اللهُ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، تَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَيْفَ شِئْتَ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْكَ. وَإِنْ تَمْنُنْ عَلَيْهِمْ بِالعَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ فَإِنَّكَ أَنْتَ الغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ الحَكِيمُ فِي صُنْعِهِ". فَيَا لِلهِ مِنْ مَوْقِفِ العَبْدِ الصَّالِحِ المُنِيبِ فِي مَوْقِفِهِ الرَّهِيبِ، وَهُوَ يَبْتَهِلُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِهَذَا الكَلَامِ البَلِيغِ!

وَهَنَا يَأْتِي التَّسَاؤُلُ: أَيْنَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَطْلَقُوا تِلْكَ الفِرِيَّةَ الكَبِيرَةَ، وَزَعَمُوا أَنَّ المَسِيحَ وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ؟! ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [سورة مريم: ٩٠-٩١]، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [سورة مريم: ٩٢]. فِرِيَّةٌ يَتَبَرَّأُ مِنْهَا العَبْدُ الصَّالِحُ البَرِيءُ، وَيَبْتَهِلُ مِنْ أَجْلِهَا إِلَى رَبِّهِ هَذَا الابْتِهَالَ المُنِيبَ.

فَأَيْنَ عَبَّادُ الصَّلِيبِ اليَوْمَ، الَّذِينَ انْتَفَشُوا بِبَاطِلِهِمْ فِي الدُّنْيَا مُسْتَكْبِرِينَ عَلَى الآيَاتِ؟ لِمَاذَا هُمُ اليَوْمَ صَامِتُونَ؟ لِمَاذَا هُمُ اليَوْمَ سَاكِتُونَ؟ لَا نَسْمَعُ لَهُمْ حِسًّا، وَلَا نَشْعُرُ لَهُمْ هَمْسًا. أَيْنَ هُمْ فِي هَذَا المَوْقِفِ؟ أَيْنَ هُمْ فِي هَذَا المَشْهَدِ؟ أَيْنَ جَرْأَتُهُمُ الَّتِي مَلَأَتِ الدُّنْيَا ضَجِيجًا؟! إِنَّ السِّيَاقَ القُرْآنِيَّ يُهْمِلُهُمْ إِهْمَالًا تَامًّا، وَلَا يُلْقِي إِلَيْهِمُ التَّفَاتَةً وَاحِدَةً، وَلَا يَصِفُ حَالَهُمْ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ عَابِرَةٍ، وَلَا يُعْطِيهِمُ اعْتِبَارًا، وَكَأَنَّهُمْ غَائِبُونَ عَنْ هَذَا المَشْهَدِ؛ لَا حِسَّ وَلَا هَمْسَ. فَلَا نَجِدُ آيَةً وَاحِدَةً تُعَبِّرُ عَنْ وَاقِعِهِمِ المُهِينِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ العَصِيبِ. فَلَعَلَّهُمْ يَذُوبُونَ خَجَلًا، وَيَتَذَاوَبُونَ خِزْيًا. لَعَلَّهُمْ يَعَضُّونَ أَيْدِيَهُمْ نَدَمًا. لَعَلَّهُمْ يَبْكُونَ حَرَقَةً وَدَمًا عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنَ الهِدَايَاتِ. فَلْنَتْرُكَهُمُ الْآنَ مِثْلَمَا

تَرَكَهُمُ السِّيَاقُ القُرْآنِيُّ، وَأَهْمَلَ ذِكْرَهُمْ؛ إِذْ لَيْسَ لَهُمْ ذِكْرٌ يَلِيقُ بِهَذَا المَوْقِفِ العَصِيبِ.

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)

يُجِيبُ اللهُ تَعَالَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَيَانِ عَاقِبَةِ الصَّادِقِينَ، فَيَقُولُ: "هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ". إِنَّهُ اليَوْمُ الَّذِي تُكَلَّلُ فِيهِ أَعْمَالُ الصَّادِقِينَ بِثِمَارِ صِدْقِهِمْ. وَهُوَ التَّعْقِيبُ المُنَاسِبُ عَلَى كَذِبِ الكَاذِبِينَ وَافْتِرَاءِ عَبَّادِ الصَّلِيبِ الَّذِينَ أَطْلَقُوا تِلْكَ الفِرِيَّةَ الضَّخْمَةَ عَلَى ذَلِكَ النَّبِيِّ الكَرِيمِ. وَسَيَدْفَعُ الكَاذِبُونَ ثَمَنَ كَذِبِهِمْ بِالخُلُودِ الأَبَدِيِّ فِي النَّارِ، بَيْنَمَا الصَّادِقُونَ يُكَافَؤُونَ عَلَى مَا قَدَّمُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ صِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ؛ لِيَدْخُلُوا "جَنَّاتٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا"، مَاكِثِينَ فِيهَا عَلَى الدَّوَامِ. وَقَدْ حَازُوا بِالرِّضْوَانِ المُتَبَادَلِ: "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ" لِصِدْقِهِمْ، وَهُمْ "رَضُوا عَنْهُ" لِعَطَائِهِ وَجَزَائِهِ. "وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" الَّذِي لَا يُدَانِيهِ فَلَاحٌ وَلَا فَوْزٌ.

وَفِي خِتَامِ سُورَةِ المَائِدَةِ، تَأْتِي الآيَةُ الأَخِيرَةُ لِتُؤَكِّدَ شُمُولَ مِلْكِ اللهِ تَعَالَى وَسِيَادَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي الكَوْنِ:

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)

للهِ تَعَالَى وَحْدَهُ "مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ" مِنْ مَخْلُوقَاتٍ وَكَائِنَاتٍ؛ خَلْقًا وَتَدْبِيرًا وَتَصَرُّفًا، يَفْعَلُ فِيهَا مَا يَشَاءُ، بِيَدِهِ مَقَالِيدُ الأُمُورِ. لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مِلْكِهِ، وَلَا مُعَارِضَ لِحُكْمِهِ، وَبِالتَّالِي هُوَ وَحْدَهُ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ. ثُمَّ يَأْتِي التَّأْكِيدُ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ التَّامَّةِ المُطْلَقَةِ: "وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ". فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يُعُوقُهُ أَمْرٌ؛ ذُو القُدْرَةِ التَّامَّةِ عَلَى تَحْقِيقِ كُلِّ شَيْءٍ، الحَكِيمِ فِي كُلِّ فِعْلٍ.

الدرس السادس عشر

فَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى خِتَامِ تَفْسِيرِ سُورَةِ المَائِدَةِ، تِلْكَ السُّورَةُ الَّتِي جَاءَتْ كَمَنَارَةٍ هَادِيَةٍ لِتُكَمِّلَ بِنَاءَ المَنْظُومَةِ التَّشْرِيعِيَّةِ الَّتِي أَرْسَتْهَا السُّوَرُ الكُبْرَى مِنْ قَبْلُ: سُورَةُ البَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءِ. سُورَةُ المَائِدَةِ جَاءَتْ لِتَأْخُذَ بِيَدِ الأُمَّةِ نَحْوَ إِكْمَالِ رِسَالَتِهَا وَدَوْرِهَا فِي تَحْقِيقِ الخِلَافَةِ فِي الأَرْضِ، فَعَزَّزَتْ فِي نُفُوسِ المُؤْمِنِينَ رُوحَ الطَّاعَةِ، وَجَدَّدَتِ العَهْدَ مَعَ اللهِ، وَأَكَّدَتِ الِالْتِزَامَ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ فِي كُلِّ مَنَاحِي الحَيَاةِ.

سُورَةُ المَائِدَةِ وَضَعَتْ خَطًّا فَاصِلًا بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، بَيْنَ المُؤْمِنِينَ وَالكَافِرِينَ، بَيْنَ الوَلَاءِ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَهْلِ الإِيمَانِ، وَبَيْنَ البَرَاءَةِ مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ. وَفِي مَسِيرَةِ حَيَاةِ المُسْلِمِ، جَاءَتْ سُورَةُ المَائِدَةِ لِتَضَعَ مِيثَاقًا جَدِيدًا بَيْنَ المُسْلِمِ وَبَيْنَ رَبِّهِ، مِيثَاقًا يَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ، وَفِي كُلِّ تَعَامُلٍ، وَفِي كُلِّ تَفَاعُلٍ.

وَمَعَ خِتَامِ سُورَةِ المَائِدَةِ، نَسْتَذْكِرُ لَحْظَةَ تَأَمُّلٍ فِيهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِحْدَى آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ؛ لَحْظَةً تَتَجَلَّى فِيهَا شَفَقَةُ الأَنْبِيَاءِ عَلَى أَقْوَامِهِمْ. حِينَمَا قَرَأَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَوْلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. كَلِمَاتُ عِيسَى تِلْكَ حَمَلَتْ نَبْرَةَ الاسْتِسْلَامِ لِحُكْمِ اللهِ تَعَالَى مَعَ إِظْهَارِ الشَّفَقَةِ عَلَى قَوْمِهِ بِعِبَارَاتٍ مَمْزُوجَةٍ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. لَمْ يَتَمَالَكِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَفْسَهُ، وَتَذَكَّرَ أُمَّتَهُ، فَانْهَمَرَتْ دُمُوعُهُ شَفَقَةً عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَخْشَى أَنْ يُبْعِدَهُ الزَّلَلُ عَنْ رِضْوَانِ اللهِ. فَرَفَعَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَدَيْهِ قَائِلًا: "اللَّهُمَّ أُمَّتِي، أُمَّتِي، اللَّهُمَّ أُمَّتِي، أُمَّتِي، اللَّهُمَّ أُمَّتِي، أُمَّتِي"، وَرَاحَ يَبْكِي - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الرَّحْمَةَ وَالرَّأْفَةَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ. فَنَادَى اللهُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ لَهُ: "يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ لَهُ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نُسِيؤُكَ". وَعْدٌ كَرِيمٌ مِنَ اللهِ بِأَنَّ اللهَ سَيُحَقِّقُ لِنَبِيِّهِ أُمْنِيَّتَهُ، وَسَيَنْحُ أُمَّتَهُ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا يُرْضِي قَلْبَهُ وَيُقِرُّ عَيْنَهُ، وَلَا يُصِيبُهُ فِي أُمَّتِهِ مَا يَلْحَقُ بِهِ الحُزْنُ وَالأَذَى. كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [سورة الضحى: ٥].

فَلْنَمْضِ عَلَى هَدَايَاتِ سُورَةِ المَائِدَةِ، وَلْنَتَّخِذْ تَعَالِيمَهَا نُورًا يُضِيءُ دُرُوبَ حَيَاتِنَا. نَتَّبِعُ الأَوَامِرَ وَنَجْتَنِبُ النَّوَاهِيَ، وَنَقِفُ عِنْدَ الحُدُودِ، وَنَصُونُ العُهُودَ، وَنَحْفَظُ العُقُودَ، وَنُقِيمُ العَدْلَ، وَنَلْتَزِمُ الصِّدْقَ صِدْقًا نَحْتَاجُهُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ، "يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ". نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَةِ الصَّادِقِينَ.

اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْ مَنَنْتَ عَلَيْنَا بِفَهْمِ سُورَةِ المَائِدَةِ وَتَدَبُّرِ آيَاتِهَا وَمَعْرِفَةِ أَحْكَامِهَا. وَمَا زَالَ مَشْوَارُنَا مُسْتَمِرًّا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى، مَاضُونَ فِي رِحْلَةٍ أُخْرَى، وَفَتْحٍ جَدِيدٍ فِي فَهْمِ سُورَةِ الأَنْعَامِ.

تم بحمد الله

للدعم أو التواصل معنا

٩٦٧٧٨١٧٩٤٨٩٢